
www.kotobarabia.com
أعمال الشاعر نزار قباني
بين قوسيْ قزح
الجزء الأول
دراسة تحليلية
بقلم
محمد الزينو السلوم
www.kotobarabia.com

أعمال

الشـاعر نـزار قبـاني

بين قوسيْ قُزح

دراسة الأعمال الشعرية الكاملة

وما قاله بعض النقاد عن نزار وأشعاره..!

دراسةٌ تحليليةٌ

بقلم

محمد الزينو السلوم

فهرس

المجلّد الأول

(الجزء ١)

(١) قالت لي السمراء (١٩٤٤)

(٢) طفولة نهد (١٩٤٨)

(٣) سامبا (١٩٤٩)

(٤) أنتِ لي.. (١٩٥٠)

(٥) قصائد (١٩٥٦)

(٦) حبيبتي..! (١٩٦١)

(٧) الرسم بالكلمات (١٩٦٦)

الجزء الأول

(١)

قالت لي السمراء

(١٩٤٤)

الإهداء

إلى محبّي الشاعر نزار قباني، وأشعاره..

من أدباء، ونقاد، ودارسين، وقراء..

إلى كل من يؤمن بحرية الكلمة..

إلى حبيبتي التي دفعتني لهذا العمل الكبير، الذي أعتبر نفسي صغيراً أمامه..

إلى التي زرعت فيّ الأمل قبل فـوات الأوان بقليـل، وجعلتني أقف كالسنديانة في وجه الأيام..

محمد



﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ
أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء *﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

ما أجمل أن يكتب الإنسان قصة حياته بيده، فكيف إذا كتبها المبدع، سواء أكان فناناً أم أديباً، ولقد فعلها الشاعر الراحل نزار قباني، في "قصتي مع الشعر " عام ١٩٧٣م قبل وفاته بربع قرن، وهو كما نعلم من مواليد دمشق ١٩٢٣م.. لقد كتب قصة حياته وقال كلّ ما يريد قوله، رسم وجهه بريشته، بألوانه، قبل أن يقصّه لنقاد، ويفصّلوه على هواهم، أو يخترعوه من جديد، كما فعلوا بعديد من الفنانين والأدباء وغيرهم من قبل.(من أقواله).. ومع ذلك فلم ينج الشاعر من مباضع الناقدين الذين أدخلوه غرف العمليات، واستلموا جسده تشريحاً، على الرغم من كل ما قاله عن نفسه، لأن الرياح كثيراً ما تجري بما لا تشتهي السفن..وأعترف لكم أنني سأكون أحد المشرّحين لجسده بمبضعي الخاص، وفي غرفة العمليات الخاصة، وأتمنى من كل قلبي أن أستخدم المبضع برفق في التشريح،، لأقف على تجربة الشاعر نزار قباني منذ البداية، إلى النهاية

(بدءاً من أعماله الكاملة، وحتى آخر مجموعة شعرية أصدرها قبل وفاته عام ١٩٩٨م) مستفيداً من محاولات النقاد والدارسين الذين سبقوني، وبأسلوب جديد، على أن تكون دراستي تاريخية، متسلسلة، ومتنوّعة، وشاملة، ثمّ أعرّج في النهاية على ما وصلت إليه تجربته الشعرية خلال نصف قرن تقريباً، فيما يتعلق بفضاءاته الشعرية من حيث الشكل والمضمون، والله أسأل أن يلهمني الصواب فيما أذهب إليه، والله يشهد أنني سأضع يدي على قلبي وضميري في كل ما أقول بعيداً عن المجاملات، والتجريح، ومن خلال ما أتبيّنه في رحلته الشعرية الطويلة، وأرجو الله أن يأخذ بيدي، ويعينني على ما أنا فيه.. ومع ذلك فلا بدّ من الاعتراف أنّ كل ما يقوله النقاد والدارسون، مجرّد رأي لا أكثر، يكشف بعض الجوانب في تجربة الأديب، ويضيء بعض الزوايا في إبداعاته، وتبقى زوايا أخرى كثيرة بحاجة إلى الكشف، والتمحيص، وقد لا تصل إليها مباضع النقاد أبداً.. وتبقى أبواب النقد مفتوحة وقابلة للحوار، والنقاش، وحتى الدراسة فقد تصيب، وقد تخطئ (وكما يقال: من اجتهد فأصاب، له أجران، ومن أخطأ فله أجرٌ واحد)..

لقد كتب العديد من النقاد عن تجربة الشاعر نزار قباني، وسيُكتب فيها مستقبلاً، ولن يقف النقد عاجزاً أمام أي عمل إبداعي، لكنه يبقى في النهاية تحصيل حاصل، أو ردّ فعل على فعل، فالعمل الإبداعي لا بدّ أن يولد ليأتي بعده النقد، ويبقى المبدع بمثابة الشمس التي ينظر إليها النقاد من بعيد، ولا يمكن أن يطالوها أبداً، أو يدخلوا عوالمها، وإنما قد يضيؤون جوانب منها.. وكما قال الأقدمون: (المعنى في قلب الشاعر)، ويبقى النقد مجرّد رأي لا أكثر..

وفي دراستي المتواضعة لتجربة الشاعر الكبير نزار قباني منذ البداية إلى النهاية، مروراً بكل أعماله الشعرية (الأعمال الشعرية الكاملة، بالإضافة إلى ما صدر من مجموعات شعرية بعدها)، وانطلاقاً من اعترافاته بخط يده في "قصتي مع الشعر)، وبعض الحوارات التي أُجريتْ معه، وبعض ما كتبه النقاد عن تجربته الشعريّة، وكما قلت استناداً إلى كل ذلك، سأحاول إعطاء انطباعاتي أو رأيي النقدي، ومن هذه المراجع، ما كُتب عنه في " رحيل قارة شعرية) عن نزار قباني (١٩٢٣- ١٩٩٨)، متابعة وتحرير: عامر مبيّض، ومحمد كرزون، إصدار ١٩٩٨م،

والذي يتضمّن أقوال بعض من كتبوا عن الشاعر بعد رحيله مباشرة.. بالإضافة لما يتوفر لي من مراجع أخرى، أتحــدّث عنها في حينه.. وكذلك ما يقدّمه لــي بعــض الأصــدقاء، والأخوة الأدباء، الذين أبدوا كل الرغبــة فــي مســاعدتي.. وسأحاول جاهداً أن يكون هذا العمل محاولة جادة، لإضــاءة وكشف جوانب هامة في رحلة الشاعر " نــزار "، بحيث يجد فيها القارئ العادي، والدارس، المتعة، والفائدة، معاً، ولهــذا تجدني أُكثر من ذكر القصائد التــي اخترتهــا عــن قصــد باعتبارها مميّزة في مجموعاته الشعرية، ويحبهــا القــراء، ويردّدونها كثيراً.. وسأقوم بدوري في شرح وتحليل مبسّط، ليسهل عليهم فهم ما غاب عنهم لعلّي بعملي هذا أصل إلــى الغاية المنشودة من وراء هذا العمل..

أمّا فيما يتعلّق بالمنهجية التي سأتّبعها في عملي هذا، فهي تقديم العمل بأجزاء ذات حجم صغير، لا تزيد عدد صفحات كل منها عن/١٥٠/ صفحة، وسأقوم بجمع كل عدة أجزاء في مجلّد خاص، متسلسل، حتى نهاية العمل..وسيتضــمّن كــل مجلّد أو جزء من الدراسة، بعض ما قاله الشاعر عن نفســه في " قصتي مع الشعر "، وأقوال أخرى له، بالإضــافة إلــى

بعض الحوارات التي أجريت معه، وما قاله بعض النقاد والدارسين عن شعره، وكذلك ما قيل في بعض الندوات التي أقيمت خصيصاً لتكريمه..

والله أسأل أن يمدني بالقوة، والتجمّل بالصبر، للوصول إلى الغاية المرجوّة، في مثل هذا العمل الذي يحتاج إلى جهد دؤوب، متواصل، لأتمكن من تقديم الفائدة والمتعة معاً، والله من وراء القصد..

محمد



(صورة نزار وهو طفل)



(صورة نـــزار في شبابه)



(صورة والده توفيق قباني)



(صورة والدته)

الأوسمة والشهادات العربية والعالمية

التي حصل عليها في حياته *

- وسام الاستحقاق الثقافي الإسباني لعام ١٩٦٤ في مدريد تقديراً لما فعله لمد الجسور الثقافية بين العرب وإسبانيا.
- جائزة جبران العالمية – سيدني – أستراليا.
- وسام الغار من النادي السوري الأمريكي في بلدية واشنطن.
- ميدالية التقدير الثقافي البلجيكي.
- الجمعية الطبية العربية الأمريكية – لجنة الثقافة والتراث.
- جائزة سلطان بن علي العويس للإنجاز العلمي والثقافي.
- عضوية الشرف في جمعية خريجي الجامعة الأمريكية ببيروت، وحصل على درع الجمعية
    - من كتاب رحيل قارة شعرية.
    - ترجمات شعرية:
- إلى اللغة الإنكليزية انطلوجيا الشعر العربي، للدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي، مؤسسة بروتا، الولايات المتحدة الأمريكية.

- إلى اللغة الإنكليزيـــة THE OTHER POETRY, OF ENTERING THE SEA، EROTIC AND
- NIZAR QABBANI ON
- ترجمة: لينا جيوسي، وشريف الموسى وشعراء أمريكيين
- الناشر: INTERLINK BOOKS نيويورك.١٩٩٠
- إلى اللغة الفرنسية، FEMMES، ترجمة محمد عضـــيمة دار ARFUYEN، باريس.
- إلـــى اللغـــة الإســـبانية AMOROSOSS POEMAS ARABS
- المترجم: بدور مارتينث منتابث.
- الناشر:المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ١٩٦٥م.
- إلى اللغة الإيطاليـــة، ROMA ORIENTE POESIE، INSTITU TO PER L
- استقبله الرئيس حافظ الأسد في مكتبه عام ١٩٧٤م

القصائد المغنّاة للشاعر نــــزار قباني *

القصيدة	اللحن	المطرب
أسألك الرحيلا	محمد عبد الوهاب	نجاة الصغيرة
أشهد أن لا امرأة	كاظم الساهر	كاظم الساهر
أصبح عندي الآن بندقية	محمد عبد الوهاب	أم كلثوم
ماذا أقول له	محمد عبد الوهاب	نجاة
أيظن	محمد عبد الوهاب	نجاة
إختاري	كاظم	كاظم الساهر
إغضب	حلمي بكر	أصالة
رسالة إلى امرأة مجهولة	محمد سلطان	فايزة أحمد
رسالة من تحت الماء	محمد الموجي	عبد الحليم
زيديني عشقا	كاظم الساهر	كاظم الساهر
قارئة الفنجان	محمد الموجي	عبد الحليم
كلمات	إحسان المنذر	ماجدة الرومي
لا تسألوني	الأخوان رحباني	فيروز
متى تعرف	محمد عبد الوهاب	نجاة الصغيرة
مدرسة الحب	كاظم الساهر	كاظم الساهر
مع الجريدة	جمال سلامة	ماجدة الرومي
من ينقذ الإنسان	كاظم الساهر	لطيفة وكاظم
بيروت	جمال سلامة	ماجدة الرومي

البطاقة الشخصية..!

الاسم: نزار توفيق قباني

تاريخ الميلاد: ٢١ مارس ١٩٢٣م

محل الميلاد:حي مئذنة الشحم (أحد أحياء دمشق القديمة).

الأسرة: أسرة نزار من الأسر الدمشقية العريقة.. ومن أبرز أفرادها أبو خليل القباني، مؤسس المسرح العربي في القرن الماضي، وهو جدّ نزار.. أما والده توفيق قباني، فتقول كتب التاريخ إنه كان من رجالات الثورة السورية الأماجد.. وكان من ميسوري الحال، ويعمل بالتجارة، وله محل معروف لبيع الحلويات، وكان نزار يساعده في عملية البيع عندما كان في صباه..

أنجب توفيق قباني ستة أبناء (نزار – رشيد – هدباء – معتز – صباح)، ووصال التي ماتت في ريعان شبابها.. أما صباح فهو ما زال حياً، وكان يشغل منصب مدير الإذاعة السورية يوماً ما..

حصل نزار على البكالوريا من مدرسة الكلية العلمية الوطنية بدمشق.. ثم التحق بكلية الحقوق بالجامعة السورية، وتخرّج فيها عام ١٩٤٥م.

عمل فور تخرّجه بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجيـــة السورية، وتنقل في سفاراتها بين مدن عديدة، خاصة القاهرة ولندن وبيروت ومدريد.. وبعد ١٩٥٩ تم تعيينـــه ســكرتيراً ثانياً للجمهورية العربية المتحدة في سفارتها بالصين.

وظل نزار متمسكاً بعمله الدبلوماسي حتى استقال منه عام ١٩٦٦.

طالب رجال الدين في سوريا بطرده من الخارجية وفصله عن العمل الدبلوماسي في منتصف الخمسينيات بعــد نشــر قصيدته الشهيرة " خبز وحشيش وقمر " التي أثــارت ضـــده عاصفة شديدة وصلت إلى البرلمان.

كان يتقن اللغة الإنكليزية خاصة وأنه تعلّم تلك اللغة على أصولها عندما عمل سفيراً لسورية في لنـــدن بـــين عـــامي ١٩٥٢-١٩٥٥.

تزوج مرتين.. الأولى من سورية، تدعى "زهرة" وأنجب منها (هدبا وتوفيق وزهراء)، وقد توفى توفيق بمرض القلب وعمره (١٧) سنة، وكان طالبـــاً بكليـــة الطـــب _ جامعـــة القاهرة، ورثاه نزار بقصيدة شهيرة عنوانها " الأمير الخرافي توفيق قباني "، وأوصى نزار بأن يدفن بجواره بعد موتـــه..

وأما ابنته هدباء فهي متزوجة من طبيب في إحـــدى بلـــدان الخليج.

والمرة الثانية من بلقيس الراوي العراقية.. التي قتلت في انفجار السفارة العراقية ببيروت عام ١٩٨٢، وترك رحيلهـــا أثراً نفسياً سيئاً عند نزار، ورثاها بقصيدة تحمل اسمها، حمّل الوطن العربي كله مسئولية قتلها..

ولنزار من بلقيس ولد اسمه " عمر " وبنت اسمها زينب..

رفض نزار أن يتزوج.. وعاش سنوات حياته الأخيرة في شقة بالعاصمة الإنكليزية وحيداً..

بدأ نزار يكتب الشعر وعمره (١٦) ســنة، وأصــدر أول دواوينه " قالت لي السمراء " عام ١٩٤٤م، وكان طالباً بكلية الحقوق، وطبعه على نفقته الخاصة..

له عدد كبير من الدواوين، كتبها على مدار ما يزيد على نصف قرن، أهمها " طفولة نهد "، " الرسم بالكلمــات "، " قصائد "، " سامبا "، أنتِ لي " وغيرها.

ولنزار عدد من الكتب النثرية أهمها: " قصتي مع الشعر" و " ما هو الشعر " و " ١٠٠رسالة حب ".

أسس دار نشر لأعماله في بيروت تحمل اسم " منشورات نزار قباني "، أعاد طبع العديد من دواوينه النثريـــة وكتبـــه عشرات المرات..

خاض معارك عنيفة مع الشاعر أدونيس في السبعينات..

بعد مقتل زوجته " بلقيس " ترك بيـــروت، وتنقـــل بـــين باريس وجنيف حتى استقرّ به المقام في لندن التي قضى بها الأعوام الخمسة عشر الأخيرة من حياته..

وافته المنية في لندن عن عمر يناهز/٧٥/ عامـــاً.. كـــان منها/٥٠/عاماً في الفن والحب والغضب.. ودفن في دمشـــق في موكب متواضع..

إضاءة على إضاءة..!

يقول الشاعر نــزار قباني في " قصتي مع الشعر ":

" أريد أن أكتب قصتي مع الشعر قبــل أن يكتبهــا أحــد غيري، أريد أن أرسم وجهي بيدي، إذ لا أحــد يســتطيع أن يرسم وجهي أحسن مني.. أريد أن أكشف الستائر عن نفسي بنفسي، قبل أن يقصّني النقاد ويفصّلوني على هواهم، قبل أن يخترعوني من جديد..

ثلاثة أرباع الشعراء من فيرجيل، إلى شكسبير، إلى دانته، إلى المتنبي، من اختراع النقاد، أو من شغلهم، وتطريــزهم على الأقل..

ومن سوء حظ الشعراء القدامى، أنهم لم يكونوا يمتلكــون دفاتر مذكرات.

أما أنا فهذا هو دفتر مذكراتي، سجّلت فيه كــل تفاصــيل رحلتي في غابات الشعر.

ولأني لا أريد أن أدخل غرفة العمليات، وأسلّم جسدي إلى مباضع الناقدين، قرّرت أن أظهر علـــى المســـرح بشــكلي الطبيعي، ووجهي الطبيعي، وأتوجّه إلى الجمهــور مباشــرة بغير وسطاء، وإعلانات حائط، وشبّاك تذاكر..

قرّرت أن أستغني عن خدمات التراجمة، والأدلّة، وأتجوّل في مدينة الشعر وحدي.. لأنني ما دمت أملك صوتاً، فلا حاجةَ بي لكل أشرطة التسجيل.

لن يكون هذا الكتاب تاريخاً بالمعنى الأكاديمي للتاريخ، لأن التاريخ هو علم الحوادث الميتة، علم الحوادث التي توقّفت عن العمل والانفعال.

ولن يكون هذا الكتاب بحثاً جيولوجياً لمادة قصائدي، وتربتها، وتشكيلها، فالقصيدة ليست إناء رومانياً أو فينيقياً من الفخّار تنتهي مهمتنا بقراءة الكتابة المحفورة عليه.القصيدة ليست مادة منتهية، ليست زمناً ميتاً، إنها جسر ممدود على كل الأزمنة.إنّ (هاملت) لا ينتمي إلى العصر الإليزابيتي فقط.. ولكن ظلّه ينسحب على كل العصور.

و(حرية) بول إيلوار ليست حرّية فرنسا وحدها، وإنما هي حرية الزنوج، والفيتناميين، والفلسطينيين، وكل من يزرعون الرماح في لحم جلاّديهم.

ودم (لوركا) المسفوح في بساتين غرناطة، ليس دماً أندلسياً فقط، وإنما هو دم البشرية كلها.

والمتنبي، هذا الذي يقف وحده في كفةَ الميـزان، ويقـف الزمان كلّه في الكفةَ الأخرى.. يبدو لي رجلاً لا جنسية له.. ولا جواز سفر.. رجلاً يقفز على العصور كلّها..

إنّ (سيف الدولة) حادثٌ تاريخي. ولهذا فهو قابل للموت. أمّا المتنبي فهو (حادث شعري) خارج سلطة المـوت. وإذا كان سيف الدولة الحمداني لا يزال يتنفّس في ذاكرتنا حتـى اليوم، فلأنّ قصائد المتنبي فيه، هي التي جعلت تنفّسه ممكناً.

لن يكون هذا الكتاب درساً يُلقى في مدرسـة ثانويـة، أو محاضرة في جامعة. فليس عندي دروس أعطيهـا لأحـد. ولكنني سأذهب مع القرّاء في نزهة قصـيرة إلـى شـاطئ البحر، ونقضي هناك عطلة نهاية الأسبوع.سنلبس الملابـس الصيفية الخفيفة، ونأخذ معنا الساندويتش وزجاجات الكـولا، والبيك – آب، وورق اللعب.سأحدّثهم، وأنـا متمـدّد علـى الرمل، عن أخباري وعن أسفاري، وعن أشعاري.. سأحدّثهم عن بداياتي، وعن هواياتي، وعن صداقاتي.سـأحدّثهم عـن أسرتي، وعن داري، وعن مدرستي، وعن الخلفيّة العائليـة والاجتماعية والثقافية التي تقف وراء شعري.

سأحدّثهم عمّن رموني بالورود، وعمّن رموني بالحجارة، عمّن عانقوني ومن صلبوني.

سأحدّثهم عن القصائد التي صنعت مجدي، وعن القصائد التي حملت حتفي.

سأتحدّث عن أصدقائي وعن أعدائي. عمّن نثروا في طريقي الزنابق.. ومن رفعوا في وجهي البنادق..

ومنذ الآن أقول: إنني أحبّهم جميعاً، حاملي الزنابق، وحاملي البنادق، وأمدّ لهم يدي مبتسماً وشاكراً.

فمن صوت القبلات عرفتُ حجم صوتي. ومن اصطدام السكاكين بلحمي، عرفتُ أبعاد جسدي. من المديح تعلّمتُ كثيراً، ومن الشتيمة تعلّمتُ أكثر. تعلّمتُ أن كل كلمة يرسمها الشاعر على ورقة، هي لافتة في وجه العصر. وأنّ الكتابة هي إحداث خلخلة في نظام الأشياء وترتيبها. هي كسرٌ قشرة الكون وتفتيتها..ولأنّ الشيء المكسور يدافع دائماً عن نفسه بالصراخ والضوضاء، تصبح الكتابة – ولا سيّما في البلدان المتخلفة التي تنام تحت لحاف الخرافة والتقاليد – قتالاً حقيقياً بالسلاح الأبيض.. بين مطرقة الكاسر وأجزاء الشيء المكسور.

من الدم السائل على وجهي وثيابي، تعلّمت أن الأدب ليس مخدّة من ريش العصافير، ولا نزهة في ضوء القمر.

تعلّمت أن الأدب ليس زهرة نشكّها في عروة سترتنا، ولكنه صليب من المتاعب نحمله على أكتافنا..

الأدب جزية وضريبة ومشي مستمر على سطح من الكبريت الساخن. الأدب ليس ابن السهولة ولا هو ابن المصادفة.

أقول هذا لكلّ الذين يحسبون أن الموهبة ورقة يا نصيب رابحة تخرج من كيس..

لا علاقة للأدب باليانصيب أو بالحظ.. والشهرة ليست مائدة ربانية تهبط من السماء.

الحاوي، يستطيع أن يخرج من قبعته عشرات الصيصان والمناديل الملوّنة.. ولكنه يعجز عن إخراج دانتي واحد، أو لوركا واحد، أو مayakovsky واحد.. من رَحِمِ الصبر يخرج الأدب. من رَحِمِ الشغل والمعاناة والفجيعة.

هذا الكتاب سيكون نوعاً من السيرة الذاتية. والسيرة الذاتية تكاد تكون مجهولة في تاريخ أدبنا. الأديب العربي لا يحب السفر في داخل نفسه، ولا يحب استعمال المرايا..

حديث النفس للنفس في بلادنا مكـروه، نحـن لا نفهـم المونولوج الداخلي، ونعتبره نوعاً من الغرور والنرجسيّة.

الشاعر العربي يبقى صائماً بانتظار حفلة تأبينيّة. فحفلات التأبين هي المناسبة الذهبية التي يجلس فيها النقّاد على قبـر الشاعر كي يلعبوا الورق..

وأنا طبعاً لن أسمح لأحد أن يلعب الورق علـى قبـري. لأنني لا أريد أن أشترك في اللعبة ...

أنا من أمة تتنفّس الشعر، وتتمشّط بـه، وترتديـه. كـل الأطفال عندنا يولدون وفي حليبهم دسم الشعر. وكل شـباب بلادي يكتبون رسائل حبّهم الأولى شعراً.. وكلّ الأموات في وطني ينامون تحت رخامة عليها بيتان من الشعر.

أن يكون الإنسان شاعراً في الوطن العربي ليس معجزة، بل المعجزة أن لا يكون.

نحن محاصرون بالشعر، ومرغمون على كتابة القصائد، كما أرض مصر تحبل بقطنها، وأرض الشام بقمحها وأرض العراق بتمورها..

نحن محكومون بالشعر، كما هولندا محكومة بالبحر، وكما قمم الهملايا محكومة بالثلج..

لذلك لا أعتبر كتابتي عملاً مجّانياً أو طارءاً، إنني عندما أكتب أخضع لكل قوانين الوراثة والسـلالة، وأنفّـذ أوامـر التاريخ.. وأتصرّف وأنا أعبر الريجنت ستريت في لندن، أو الشانـزيليـزيه في باريس، كأيّ بدويّ عاشق لا يملك مـن متاع الدنيا سوى عباءته وحنجرته..

هل من نعمة الله على العرب أنه دوّزَنَ حناجرهم دوزنـة شعرية.. أم أن الشعر لعنة أبديّة تلاحقهم؟

هناك من يعتقد أن الشـعر هـو لعنـة العـرب، وأنـه (حشيشة) خدّرتهم ، وفلجت أعصابهم، ومنعتهم من اللحـاق بقطار العصر.

أنا أرفض هذا المنطق، وأؤيّد الجاحظ في قوله (إن الشعر هو فضيلة العرب)، والفضيلة هنا تعني أطهر ما لدى الإنسان وأشرف ما عنده.

الشعر هو الصورة والمثال للأمّة، يتألّق بتألّقها، ويشـحب بشحوبها، وليس صحيحاً أننا متخلّفون لأنّ شعرنا دخل فـي مرحلة الكسوف يوم دخلنا نحن في مرحلة الكسوف

العصور العظيمة في التاريخ العربـي، أعطـت شـعراً عظيماً، وعصور الإنحطاط أعطت شـعراً منحطّـاً. وهـذه

المعادلة تنطبق أيضاً على الأدب اليوناني والروماني، حيث كان الشعر مرتبطاً بمساحة الدولة ومساحة طموحها.

فالخطيئة إذن ليست خطيئة الشعر، ولكنها خطيئة من يكتبونه. الجاهليون كتبوا شعراً يشبههم، والأمويون كتبوا شعراً يشبههم، والعباسيون كتبوا شعراً يشبههم، والخمر دائماً هي الخمر، ولكنّ الكؤوس هي التي تختلف.

ليست عندي نظريّة لشرح الشعر، ولو كان عندي مثل هذه النظرية، لما كنت شاعراً. إنّ المعرفة بما نفعله تعطّل الفعل، تماماً كما يرتبك الراقص حين يتأمل حركة قدميه، الشعر رقص باللغة، والكلام عنه هو علم مراقبة الخطوات، وأنا بصراحة أحب أن أرقص.. ولا يُعنيني أبداً أن أقيس خطواتي، لأن مجرّد التفكير بما أفعل يفقدني توازني.

الشعر رقص باللغة، أُعيدها مرة ثانية، رقص بكلّ أجزاء النفس، وبكلّ خلجاتها الإرادية واللاإرادية، وبكل طبقاتها الظاهرة والمستترة، وبكلّ أحلامها الممكنة وغير الممكنة، وبكلّ نبوءاتها المعقولة واللامعقولة.

إنّ الذين يكتبون النثر، من قصة ورواية ومسرحية، لا يعانون أيّة مشكلة، فهم يمشون مشياً طبيعياً، ويتحركون على الورق حركات مدروسة ومنطقية، ويسيرون على الأرصفة المخصصة للمارّة.

أمّا الشعراء فهم يؤدّون رقصة متوحّشة، يتخطّى فيها الراقص جسده، ويتجاوز الإيقاع المرسوم، ليصبح هو نفسه إيقاعاً.

إني أكتب الشعر ولا أدري كيف.. كما لا تدري السمكة كيف تسبح، والعصفور كيف يطير.

الشاعر موجود في شعره بشكل إلزامي وجبري، إنه محتجز ومعتقل داخل الشعر كما السمكة معتقلة في محيطها المائي، لا تملك انسحاباً ولا خلاصاً.

خلاص الشاعر من شعره، والسمكة من مائها لا يكون إلاّ بالموت.

وما دام الشعر مزروعاً في الشاعر، حربة من البرونز المشتعل، فمن الصعب عليه أن يكتشف الحدود الحقيقية للحرية، والحدود الحقيقية للطعنة، لأنّ اللحم والحرية أصبحا شيئاً واحداً..

إنّ تأمّل الشاعر لما يجري في داخله عملٌ عسير، إنها نفس الصعوبة التي تعترض الوردة حينما تحاول أن تشمّ عطرها.. والفم حين يحاول تقبيل نفسه..

لذلك ليس عندي أية نظرية عن ذلك الزلزال الذي يركض تحت سطح جلدي، من أين يجيء وإلى أين يذهب؟

أنا أتلقّى الزلزال مستسلماً ومدهوشاً.. وأخرج من تحت رمادي وخرائبي ولا أدري ما الذي حصل.. وكما لا يمكن توقيت الزلازل لا يمكن توقيت الشعر..

إنه هجمة مباغتة تشق حفرة كبيرة في سكوننا، وفي وجودنا، وتنسحب قبل أن نستطيع اللحاق بها..

هذا انطباع أوّلي عمّا يحدث، إنه خاص بي، ويجوز أن تكون تجربة غيري مختلفة تماماً..

لذلك أقول ليس للشعر نظريّة، كل شاعر يحمل نظريّته معه.

الشعر حصان جميل الصهيل، كل واحد يركبه على طريقته الخاصة، طريقتي أنا.. هي أن لا أذلّ الحصان، ولا أكْرِهه على المسير في الوعر، والوحل، والعتمة.. ركوب

الخيل أخلاق.. وأنا لا أسمح لنفسي أن أسخر من شاعر يركب حصانه خطأً، أحاول أن أجد له العذر

حصان الشعر صديقي، والفارس الحقيقي لا يخون صداقة الخيل.

إني أفهم أفكار حصاني جيداً.. ألثم جبهته، أمسح عرقه، أحكي معه طوال الطريق، وأملأ فمه لوزاً وزبيباً..

ولكن أين يسكن الشعر؟ كلما حاولت أن أتعقّب الشعر إلى حيث يسكن.. هرب مني.

ثلاثون سنة، وأنا أحاول أن أفاجئه بملابسه الداخلية، أو عارياً.. ولكنه في كل مرة كان يلبس طاقيّة الإخفاء.. ويتبخّر كالروح النقي..

كنت أريد أن أهاجمه، وهو بين قواريره، وخرائطه، وأقلامه الملوّنة.. ولكنه في كل مرة كان يشعر بالخطر.. كان ينسف المعمل الذي يشتغل فيه ويتلاشى.

بعد ثلاثين سنة من مطاردة الشعر في كل البيوت السرّية التي كان يلتجئ إليها، وفي كل العناوين الكاذبة التي أعطاها للناس، أكتشف أن الشعر وحشٌ خرافيٌ لم يره الناس، ولكنهم

رأوا آثار أقدامه على الأرض.. وبصمات أصابعه على الدفاتر..

كل الذين كتبوا عن الشعر، كانوا يعرفون أنهم يطاردون حيواناً خرافياً لا يُمسكُ ولا يُقهر.

كلهم كانوا يعرفون، وهم ينبشون القارّات والغابات والمحيطات بحثاً عنه، أن هذا الوحش الجميل لن يسمح لهم أن يعلّقوا جلده بالدبابيس على جدران المتاحف، والجامعات، والمدارس الثانوية.

وتستمر اللعبة المستحيلة عبر القرون، ويظلّ الصيادون يرمون شباكهم ويسحبونها، ويبقى الشعر – هذا الوحش الجميل – يقفز على الشجر، وعلى القمر، وعلى ضفائر البنات، ويمدّ لسانه لجميع صيّاديه..

.. وبصمات أصابعه على الدفاتر..

*

لو كان الشعر وصفة، لأمكن تركيبُه في دكاكين العطّارين ولو كانت القصيدة شجرة لاكتشفنا في أوراقها وغصونها وجذورها كلّ تاريخ الشجر، ولو كانت حجراً لعرفنا بعد دراسته مختبراً بأكل تاريخ الحجر..

لكنّ الشعر سائل شديد التبخّر والتمدّد، وإفراز إنســاني لا يطيق سكنى الأوعية والقوارير..

الشاعر يكتب، ولكنه أسوأ من يفسّــر كيميــاء الكتابــة. ويموت على دفاتره ولكنه لا يستطيع تفسير موته الشعري..

لو طلبنا من شكسبير أن يشرح لنا الطريقة التي صنع بها (هاملت) لتلكأ.. ولو سألنا بيتهوفن أن يحــدّثنا عــن مــيلاد (التاسعة) أو (الخامسة) أو (الثالثة) لأكلته الحيــرة.. ولــو سألنا روبنس أو ماتيس أو فان كوخ أو غويا أو الغريكو عن طريقة زواج الألوان والظلال لديهم.. لتلفّتوا إلــى بعضــهم مندهشين..

وفي الشعر تتضاعف الصعوبة، إذ لا يمكن لشاعر أثنــاء فترة الشغل أن يقول لك كيف اشتغل.. ولعله بعد فترة الشغل لا يستطيع أن يتذكر كيف اشتغل..

والشعراء الذين تكلّموا عن تجاربهم الشعرية كانوا دائمــاً يطوفون حول الشعر، ويحاصــرونه حصــاراً طرواديــاً.. ويقفون على أطلال القصيدة المنتهية.. أي بعد تحوّلها إلــى رماد.. وكل بحث في الشعر، هو بحثٌ عن الرماد لا عــن النار..

ربما كانت هـذه المقدّمـة غارقـة فـي ميتافيزيكيتهـا ورومانسيّتها، ولا تضيء وجه الحقيقة الشعرية، ولكن أيـن هي الحقيقة الشعرية؟ ما هو شـكلها.. فـي أي مدينـة وأي شارع تسكن؟

كيف يمكنني أن أكـون موضـوعياً حـين أكـون أنـا الموضوع؟ وكيف يمكن أن أحدثكم عن مساحة جرحي حين أكون أنا الجريح؟.

***

وبعد هذه الصفحات القليلة من " قصتي مـع الشـعر " والتي أعتبرها مقدّمة الشاعر نـزار قباني (المدخل) إلـى دراستي لأعماله الشعرية، والتي لم تنته بعد، وسأقوم بإتمـام عرضها في أجزاء أخرى تماشياً مع متطلّبات الدراسة.. ".

مدخل إلى الدراسة..!

لا بدّ قبل البدء بالدراسة واستعراض أعمال الشاعر الراحل، من أن أقدّم شكر الشاعر نزار قباني للقائد الخالد حافظ الأسد الشامخ في تكريمه، حيث يقول في أواخر عام ١٩٩٧م بعد أن تعافى من مرضه:

" إنّ السيد الرئيس حافظ الأسد قد حماني دائماً، وظلّلني بمظلّة حبه، وكان الأب الحنون الذي لم يتخلّ عن ابنه لحظة واحدة.. فله شكري العظيم وعرفاني، ولجميع الوزراء، والسفراء، الذين أوفدهم للسؤال عني في لندن، حاملين لي من دمشق نعيم العافية..

حفظ الله الشام، وحفظ قائدها، وشعبها، من كلّ سوء، فإذا كنت أقف على أقدامي اليوم، فإن الفضل يعود إليهم.

نزار قباني

رحيل قارة شعرية.

من أقواله أيضاً:

" إني أعترف لكم، أنني نـــزفت طويلاً علـــى أوراقـــي، ودفعت ضريبة الشعر من جسدي، ومن صـــحتي، إلاّ أنني بالمقابل، أعترف لكم أنني أخذت من حب الناس ما لم يأخذه أي شاعر آخر.. ".

نـــزار

مما قالته الشاعرة الكويتية

• سعاد الصباح عن نـــزار:

.. إنه في الأمس واليوم والغد شـــاعر العربيـــة لكبيـــر الأستاذ نـــزار قباني الذي جسّد الأحـــلام الورديـــة لجيـــل وصرخة الحرية لجيل وزهرة الأمل في غدٍ أفضـــل لكـــل جيل..

الشاعر الذي يجسّد الأرض والمرأة والغضب والمجتمـــع بكلّ آماله وآلامه، وأحسبني أظلم الشـــعر إذا قلـــت أنـــه أي شاعر سوى الأستاذ نـــزار قباني..

أنا تلميذة ناجحة جداً في جامعة شـــعر عربيـــة أرســـى دعائمها، ورعى جداول أصواتها كبير الشعر العربي نـــزار قباني.

عن الرأي العام الكويتية ١٩٩٨/٥/١م

* مما قاله الشاعر محمود درويش

كان نـــزار في ظنـــي عـــابراً للمـــدارس والاتجاهـــات الشعرية، كأنه خط يخترق تـــاريخ الشـــعر العربـــي، غيـــر مكترث بأسئلة الحداثة، ولكنه كان شـــاعراً مجـــدّداً، أدخـــل الشعر في نسيج الحياة الاجتماعية، وبسط الشعر إلى درجـــة أنه حوّله إلى شعر للجميع، فكان في النصف الثاني من القرن العشرين أمير الشعر العربي بحق.. وسننتظر طويلاً شاعراً آخر يعيد الشعر إلى المكانة العامة التي وضعه فيهـــا نـــزار قبانـي.

مجلة ألوان – أيار - مايو ١٩٩٨م

*مما قاله الشاعر سميح القاسم

.. قالوا إنه يشبه عمر بن أبي ربيعة كونه كتب في المرأة والحب.. وأنا أقول: إنّ عمر بن أبي ربيعة من قافلة شعراء التاريخ العربي، لكنّ نــزار قباني هو مدرسة الشعر العربي الحديث، يعيش على روحها آلاف الشــعراء، وجيــل مــن الشباب المثقّف..

سميح القاسم

*مما قاله الدكتور غازي القصيبي

نجيئك أطفالاً، فتمنحنا الـــدّمى

وتحكي لنا ما كـــان يفعـــل عنترُ

ونأتيك أطيـــاراً تناثـــر ريشـــها

فينمو لنا ريشٌ من الشعر أخضر

ونغشاك أوطاناً تنـــوء بـــذلّـــها

ونلقـــاك عشاقاً.. فتطعمنا الرؤى

لـــك الله أتعبناك! لا نحن نرعوي

ولا أنـــت من نـــزواتنا تتضجّـــر..

(١)

قالت لي السمراء

(١٩٤٤م)

* ترى هل قالت له السمراء، أم قال لها..؟!

*** في الإهداء يقول الشاعر:**

قلبي كمنفضة الرمـــاد.. أنا
إن تنبشي ما فيـــه.. تحترقي
شـــعري أنا قلبي.. ويقلقني
من لا يرى قلبي على الورق..

تتضمّن مجموعة " قالت لي السمراء " إصدار عام (١٩٤٤م) القصائد التالية: ورقة إلى القارئ – مذعورة الفستان – مكابرة – الموعد الأول – اكتبي لي – أمام قصرها – اندفاع – أنا محرومة – في المقهى – لسمها – غرفتها – زيتية العينين – حبيبة وشتاء – مساء – خاتم الخطبة – سمفونية على الصيف – إلى مصطافة – فَم – أحبك – مسافرة – القرّط الطويل – رافعة النهد – نهداك – أفيقي – إلى عجوز – إلى زائرة – مُدنّة الحليب – البَغي ..

جاءت المجموعة في/٩٠/ صفحة من القطع الوسط في مجموعة أعماله الكاملة (إصدار عام ١٩٨٣م)، الجزء الأول، تحتوي على/٢٨/ قصيدة كما رأينا، ومنذ القراءة الأولى للمجموعة، نجد الشاعر يكرر العديد من الكلمات في قصائد المجموعة، مثل: النجوم – الثغر – النهد – الوردة – العصافير – الفراشة – الصفصافة، والأمثلة على ذلك كثيرة في المجموعة..

في قصيدة " ورقة إلى القارئ " يقول:

أُعبّئ جيبي نجوماً.. وأبني
على مقعد الشمس لي مقعدا

وفي مقطع آخر من قصيدة " مذعورة الفستان " يقول:

وأقتحـــم النـــهد.. وأسراره
ولم يعــد من ذلك الكــوكب

إلى أن يقول:

مخضـــرّة الخطـــوة.. لا تخجلي
هل تغضب الوردة كي تغضبي؟

وفي قصيدة " مذعورة الفستان " يقول:

تسلسلي، مفتاح رصـــدٍ ثبي
فراشـــة بيضاء، في ملعبـــي

وفي قصيدة " غرفتها " يقول:

شـــقراء.. لا أعـــرفها لثغـــة
يعيـــا بها ثغـــرك عنـــد النقاشْ

وفي قصيدة " زيتية العينين " يقول:

كأنما عينـــيك ســـطّ الصـــبا
صفصافة تحت الضحى الزئبقي

وفي قصيدة " حبيبة وشتاء " يقول:

وهــــاجر كـــلّ عصـــفورٍ صديـــقِ
ومـــات الطيب، وارتمتِ الجذوعُ

ولو أردنا إحصاء عدد المرات التي يتكرر فيها ذكْر هذه الكلمات، لوجدناها لا تعدّ ولا تحصى، في قصائد المجموعة، وفي جميع مجموعاته اللاحقة..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، ترُى لماذا يكرر الشـــاعر هذه لكلمات في أكثر قصائده..؟!

ولماذا التركيز على الجسد (الثغر – النهد – العيـــون – الشعر – الصدر..الخ)، وعلى العصافير، والفراشات، والصفصاف (الطبيعـــة)، وعلـــى النجـــوم، والشـــمس (الفضاء)...؟!

التكرار أحياناً يفيد التأكيد على ما يدور في خلْد الشاعر، ويعني أحياناً قلة الكلمات المعجمية لدى الشاعر، وخاصة في بداية تجربته الشعرية، حيث يلوّن بها قصائده في كلّ مـــرة، وقد تعني أشياء أخرى لأسباب تعيش في أعمـــاق الشـــاعر، مردّها حالات نفسية، كل هذه الاحتمالات واردة فـــي ســـبب التكرار، وقد تكون هناك احتمالات أخرى..!

فيما يتعلّق بتكرار الكلمات التي تتعلّق بالجسد، أستطيع القول: بما أنّ المرحلة التي يغزل فيها الشاعر قصائده هي مرحلة المراهقة (استناداً لسنّه، وبدء تجربته)، فإنّ الأسباب تعود إليها في اعتقادي، ولا تفسير آخر لذلك عندي.. لم أجد كلمة روح ، أو مشاعر وأحاسيس داخلية تتكرر في لغة الشاعر وخاصة في هذه المرحلة، وعليه أبني رأيي هذا..

أمّا تكرار الكلمات التي تتعلّق بالطبيعة، والفضاء، فهي حال الشاعر الإبداعية، والبذور التي تنبت من تربته، فالشاعر يلوّن بريشته وخياله لوحاته (رسم، وتصوير)، والشاعر نزار قباني أحبّ الرسم والموسيقى كما نعلم قبل أن يغزل الشعر..

ومما هو جدير بالذكْر، أنني سأعود إلى مثل هذه الكلمات المكررة في قاموس الشاعر، ومعجمه اللغوي في أكثر من مكان، للوقوف على مدى توفّقه ونجاحه في توظيف، واستخدام مثل هذه الكلمات في تجربته الشعرية..

بعد هذا أنتقل إلى جانب آخر، هو إضاءة، وكشف جوانب أخرى في قصائد الشاعر، وخاصة القصائد التي لقيتْ

استحساناً، وارتياحاً، من قبل جمهور القرّاء، والدارسين على السواء، وأبدأ بقصيدة " ورقة إلى قارئ ":

ورقة إلى القارئ..!

كميّسِ الهوادج.. شرقية
ترشّ على الشمس حلو الحِدا
كدندنة البدو فوق سريرٍ
من الرمل، ينشف فيه الندا
مثل بكاء المآذن، سرتُ
إلى الله أجرح صحوَ المدى
أعبّئ جيبي نجوماً..وأبني
على مقعد الشمس لي مقعدا
ويبكي الغروب على شرفتي
ويبكي..لأمنحه موعدا
شراعٌ أنا لا يطيق الوصولْ
ضياعٌ أنا لا يريد الهدى
حروفي، جموع السنونو، تمدّ
على الصحو، معطفها الأسودا
أنا الحرف. أعصابه. نبضهُ

تمزّقه قبل أن يولدا..

أنا لبلادي..لنجماتها

لغيماتها..للشذا..للندى

سفحتُ قوارير لوني نهوراً

على وطني الأخضر المفتدى

ونتفتُ في الجو ريشي، صعوداً

ومن شرف الفكر أن يصعدا

تخيّلتُ..حتى جعلتُ العطورَ

ترى.. ويُشمّ اهتزازُ الصدى

بـــأعراقيَ الحمرِ.. إمرأةٌ

تسير معي في مطاوي الردا

تفحُّ..وتنفخ في أعظمي

فتجعل من رئتي موقدا

هو الجنسُ أحمل في جوهري

هيولاهُ من شاطيء المبتدا

بتركيب جسمي جوعٌ يحنّ

لآخرَ..جوعٌ يمدّ اليدا

أتحسبُ أنك غيري؟ ضللتَ

فإنّ لنا العنصرَ الأوحدا

جمالُكَ مني..فلولايَ لم تَكُ

شيئاً..ولولايَ لن تُوجدا

ولولايَ ما انفتحتْ وردةٌ

ولا فقعَ النديُ أو عربدا

صنعتُكَ من أضلعي لا تكنْ

جحوداً لصنعي ولا مُلحدا

أضاعكَ قلبي، ولمّا وجدتُكَ

يوماً بدربي..وجدتُ الهدى

عزفتُ، ولم أطلبِ النجمَ بيتاً

ولا كان حلمي أنْ أخلُدا

إذا قيلَ عني " أُحسُّ " كفاني

ولا أطلبُ " الشاعرَ الجيّدا "

شعرتُ " بشيءٍ فكوّنتُ " شيئاً "

بعفويةٍ، دونَ أنْ أقصدا

فيا قارئي..يا رفيقَ الطريقِ

أنا الشفتانِ..وأنتَ الصدى

سألتُكَ باللهِ.. كنْ ناعماً

إذا ما ضممتَ حروفي غدا

تذكّرْ..وأنتَ تمرُّ عليها

عذابَ الحروف..لكي توجَدا

سأرتاحُ.. لم يكُ معنى وجودي

فُضولاً..ولا كانَ عمري سُدى

فما ماتَ مَنْ في الزمانِ

أحبَّ..ولا ماتَ مَن غرّدا.

والقصيدة كما رأينا مليئة بالصور البديعة، والجميلة، (ترش على الشمس حدْوَ الحدِا)، (بكاء المآذن)، (أجرح صحو المدى)، أعبّئ جيبي نجوماً)، (ويبكي الغروب)، (تنفخ في أعظمي)، (فقَعَ النَدّي)، لكن هناك أمر آخر أريد هنا توضيحه، والتركيز عليه، هو الجنس حيث يقول الشاعر:

هو الجنس أحمل في جوهري

هيولاه من شاطئ المبتدا

بتركيب جسميَ جوعٌ يحنُّ

لآخر.. جوعٌ يمدّ اليدا

نلاحظ هنا اعتراف الشاعر أنه يحمل الجنس في جوهره، وأنّ بتركيب جسمه جوعاً يحنّ لآخر جوع يمدّ اليداء، وسواء أكان هذا يتعلّق به شخصياً، أو أنه يخص العام، فهذا دليل

راسخ على أن الشاعر ينظر إلى الجسد، قبل الـــروح، وقـــد تشفع له مراهقته لقول ذلك..

أمّا فيما يتعلّق بالقارئ والحرف نجده يقول:

فيا قارئي.. يا رفيـــق الطريـــقِ

أنا الشفتان.. و أنت الصدى

قصيدة " الموعد الأول "

ويمنحني ثغرها موعداً
فيخضرّ في شفتيها الصدى
وأمضي إليها..أنا شهقاتُ القلوعِ
تغازل لونَ المدى..
وأين القرارُ؟ سبقتِ الزمان
سبقتُ المكانَ. سبقتُ غدا
أخوّض في الصبح.ملء طريقي
أريجٌ..وملء قميصي ندى
يدي في ذراعكِ، أين الضياعُ
تخافينهُ؟ نحن نهدي الهُدى
أحبكِ. فوق التصورّ..فوقَ
المسافات. فوق حكايا العدا
جرحتُ الأزاميل فيكِ حملتُ
إلى شَعركِ القمرَ الأسودا..
على الله. حتى..فلم يسجُدا.

في الموعد الأول يمنحه ثغرها موعداً، فيخضرّ في شفتيها الصدى، يمضي إلى الموعد، ويسأل أين القرار؟ لقــد ســبق الزمان والمكان، سبق الغد، يخوّض في الصبح، ملء طريقه

الأريج، وملئ قميصه الندى، يده في ذراعها، كي لا تهـرب منه، يسألها: أتخافين الضياع؟ نحن معاً نهدي الهدى.. إنـه يحبها فوق التصورّ.. فوق المسافات.. فوق حكايا العدا.. لقد جرح فيها الأزاميل، وحمل إلى شعرها القمر الأسودا..

(أي حمل إلى شعرها الأسود القمر)، كمـا أنـه شـجّع نهديها.. فاستكبرا على الله، حتى.. فلم يسجدا..

وأعتقد أنّ القصيدة لم يوفّق فيها الشاعر، كما في قصـائد الأخرى، وخاصة في البيت الأخير، فلا حاجـة للشـاعر أن يزجّ الاستكبار على الله من قبل نهديها، حتى أنهما لم يسجدا، صورة ضعيفة، لم يوفّق فيها الشاعر.. (أُشير إلى اسـتخدام الشاعر كلمتي الثغر، والنهد..).

اكتبي لي..!

إليّ اكتبي ما شئتِ..إني أحبهُ
وأتلوه شعراً..ذلك الأدبَ الحلوا
وتمتصّ أهدابي انحناءاتِ ريشةٍ
نسائيةِ الرعشاتِ ناعمةِ النجوى
عليّ اقصصي أنباء نفسكِ..وابعثي
بشكواكِ. من مثلي يشاركك الشكوى؟
لتفرحني تلك الوريقاتُ حُبّرت
كما تَفرحُ لطفل الألاعيبُ والحلوى
وما كان يأتي الصبر..لولا صحائفٌ
تُسلّمُ لي سراً..فتلهمني السلوى
أحنّ إلى الخطّ المليس..ورقعةٍ
تطايرُ كالنجمات، أحرفها النشوى
أُحسّكِ ما بين السطور ضحوكةً
تحدثني عيناكِ في رقّةٍ قصوى
تغلغلتِ في بال الحروف مشاتلاً
وصوتاً حريريَّ الصدى، وداعاً، حلوا
رسائلكِ الخضراء..تحيا بمكتبي
زرعتِ جواريري شذاً وبراعما

وأجريتِ في أخشابها الماء والسروا..

إليّ اكتبي إمّا وجدتِ وحيدة

تدغدغكِ الأحلام في ذلك المأوى

ومرّت على لين الوسادة صورتي

تخضّبها دمعاً.. وتُغرقها شجوا

وما بكِ ترتابين؟ هل من غضاضة

إذا كتبتُ أختُ الهوى للذي تهوى؟

ثقي بالشذا يجري بشَعرك أنهراً

رسائلكِ النعماءُ في أضلعي تُروى

فلستُ أنا مَن يستغلّ صبيّةً

ليجعلها في الناس أقصوصةً تُروى

فما زال عندي – رغمَ كلّ سوابقي –

بقيّة أخلاقٍ..وشيءٌ من التقوى.

يســألها أن تكتب له ما تشاء، فهو يحبه ويتلــوه شــعراً، أهدابه تمتص انحناءات ريشة، نسائية الرعشــات.. ناعمــة النجوى.. (صورة موفّقة)، يريد منها أن تحدّثه عن نفســها، فهو يشاركها شكواها.. إنّ الأوراق التي تبعثها له تفرحه كما تُفرح الطفل الألعاب، والحلوى (صورة جميلــة)، ويتــابع الشاعر الحديث عن رسائلها، وكيــف تتطــاير كالنجمــات

أحرفها النشوى (صورة موفّقة)، تحدثه عيونها في رقّة، رسائلها مساكب ورد.. ويمضي الشاعر في دفعها إلى الكتابة، وليس في ذلك غضاضة، إلى أن يصل بنا إلى بيت القصيد حيث يقول:

فلست أنا من يستغلّ صبيّة
لِيجعلها في الناس أقصوصة تُروى
فما زال عندي – رغم –كلّ سوابقي–
بقيّة أخلاقٍ.. وشيء من التقوى

يعترف الشاعر بسوابقه الناقصة، لكنه يصرّح أنه مازال عنده بقيّة أخلاق، وبعض التقوى..!

وإذا كانت المباشرة واضحة في مثل هذا المقطع، فهي أسلوب الشاعر الذي طالما أقرّه، واعترف به، لكنه هنا يخلو من الفنية.. ومع ذلك فقد أوصل مقولته إلى القارئ..

(أشير إلى استخدام كلمتي النجوم والورد في القصيدة)

أنا محرومة..!

لا أمةُ لا نتْ.. ولا أمي
وحبّهُ ينام في عظمي
إن خبّأتْ أمي بصندوقها
شالي. فلي شالٌ على الغيمِ
أو أوصدوا الشبّاك كي لا أرى
فتحتُ شبّاكاً من الوهمِ
ما أشفق الناس على حبّنا
وأشفقتْ مساندُ الكرْمِ
أحبُّ عطر الجرح من أجلهِ
فهل تراهم عطّروا همّي
أما بذرنا الرصد والميجنا
هناك في جنينة النجمِ..
قوافل الأقمار من رسمهِ
وما تبقّى كلّه رسمي..
وقبلنا لا شال شالٌ..ولا
أدرك خصرٌ نعمةَ الضمِّ
من فضلنا. من بعض أفضالنا
أنّااخترعنا عالمَ الحلْمِ..

تبرز في القصيدة جملة (شال من الغـيم)، (شـبّاك مـن الوهم)، (طر الجرح)، (عطر الهمّ).. صور جميلة وبديعـة لكن:

لكن هناك على عكسها (جنينة النجم)، (من فضلنا، مـن بعض أفضالنا)، (أنّا اخترعنا)، فيها ما يشير إلى الغرور في غير مكانه، وضعف اللغة الشعرية التي تصل إلـى درجـة العاميّة.. (أُشير إلى استخدام كلمة الأنجم في القصيدة).

زينَبَّة العينين..!

زينَبَّة العينينِ.. لا تُغلقي
بِسلمِ هذا الشفقُ الفستقي
رحلتنا في نصف فيروزةٍ
أغرقتِ الدنيَ ولم تغرقِ
في أبدٍ يبدأ ولا ينتهي
في ألفِ دنيا، بعد لم تُخلقِ
في جزرٍ تبحثُ عن نفسها
ومطلق يولد من مطلق
وتنتهي الدنيا ولا ينتهي
تشرّدي في غابة الفستق
قميصكِ الأخضرُ..من يا ترى
باعكِ هذا اللون..قولي اصدقي
أمِن ضفاف (السين) خيطانُهُ
واللونِ من دانوبه الأزرق
أم من صغير العشب لملمته
في سلّةٍ بيضاء من زنبقِ
بحيرةٌ خضراء في شطّها

نامت صبايا النور لن تتقي
كأنما عينيكِ وسْطَ الضيا
صفصافةٌ تحت الضحى الزنبقي
عريشةٌ كسلى على سفحنا
عنقودها بالشمس لم يُحرق
شبّاكيَ الصغير.. يُفضي إلى
فُسقيَة..يُفضي إلى المشرق
إلى نوافير رمانيةٍ
تبكي بصوت أزرقٍ..أزرق
يُفضي إلى لا حيث..شباكنا
يُفضي إلى لا منتهى شيّق
من ألف عامٍ وأنا مبحرٌ
ولم أصل ولم يصل زورقي
أمضي على زمرُدٍ دافئٍ
يرهقني..فُديتَ يا مرهقي
وشوشةُ البحيرات مسموعةٌ
من خلف الهدُب المطرق
قطراتُ فيروزٍ على جبهتي

منكِ، على شعري، على مفرقي

يا مطرَ العينين..لا تنقطعْ

جوعُ الربى للأخضر المورقَ

يا مرفأ الفيروز.. يا متعباً

سفينتي. لا بدّ أن نلتقي.

تعتبر هذه القصيدة من روائع قصائد المجموعة، وُفّق في اختيار الموسيقى، والقافية، والصور، واللغة الشعرية، (أشير إلى كلمة صفصافة في القصيدة).

فــم..!

في وجهها يدور..كالبرعمِ
بمثله الأحلام لم تحلُمِ
كلوحةٍ ناجحةٍ.. لونها
أثار حتى حائطَ المرسمِ
كفكرةٍ.. جناحها أحمرٌ
كجملةٍ قيلتْ ولم تُفهمِ
كنجمةٍ قد ضيّعتْ دربها
في خُصلاتِ الأسود المعتمِ
زجاجةٍ للطيب مختومةٌ
ليتَ أواني الطيب لم تُختمِ
مِن أين يا ربي عصرتَ الجنى؟
وكيف فكّرتَ بهذا الفمِ
وكيف بالغتَ بتدويرهِ؟
وكيف وزّعتَ نقاط الدمِ؟
وكيف بالتوليب سوّرتَهُ
بالورد، بالعنّاب، بالعندمِ؟
وكيف ركّزتَ إلى جنبه

غمّازةً..تهزأ بالأنجم؟

كم سنةً.. ضيّعتَ في نحته؟

قل لي . ألم تتعبْ..ألم تسأمِ؟

مُنضمّةَ الشفاه..لا تُفصحي

أُريد أن أبقى بوهم الفم..

يصف الشاعر في قصيدته فم فتاة بأنه يدور في وجهها كالبرعم، بمثله لم تحلم الأحلام، كلوحة ناجحة لونها أثار حائط المرسم، كفكرة جناحها أحمر (يجعل للفكرة جناحاً كالفراشة)، كجملة قيلتْ ولم تُفهم، كنجمة ضيّعتْ دربها في خُصلات الشعر الأسود المعتم..

(صورة جميلة)، يشبّهه أيضاً لزجاجة عطر مختومةً.. ويسأل الشاعر ربّه، من أين عصر الجنى؟ وكيف فكّر بخلق هذا الفم؟ وكيف بالغ في تدويره؟ وكيف وزّع نقاط الدم؟ وكيف بالتوليب سوّره؟ وبالورد والعنّاب والعندم؟ وكيف ركّز إلى جنبه غمّازة تهزأ بالأنجم؟ وكم سنه ضيّع في نحته؟ ويسأله أن يقول له ألم يتعب، ألم يسأم؟ ويعود ليخاطب المرأة المنضمّة الشفاه.. ويطلب منها أن لا تُفصح، لأنه يريد أن يبقى بوهم الفم..

نرى أنَّ القصيدة تتضمَّن وصف الفم، بالإضافة إلى سؤال الرب من أين، وكيف، وكيف؟ إلى آخره.. ومما لا شك فيه أن الشاعر وُفِّق بالوصف، إلا أن بداية القصيدة بأن الفم يدور في وجهها كالبرعم..! ما علاقة الدوران بالبرعم؟ وهل البرعم يدور؟ وحتى الفم هل يدور في الوجه؟ وهل قصد الشاعر كلمة مدوّر، ومن أجل استقامة الوزن، استبدل كلمة مدوّر بكلمة يدور؟ الفرق كبير بين الكلمتين في اللغة الشعرية.. ربّما، ولكنْ..

ثمّ أن إقحام الرب بمثل هذه الأسئلة، كيف، وكيف، إلى درجة مخاطبته الرب بطلب مباشر، قلْ لي. ألم تتعب.. ألم تسأم؟ (بلغة الأمر)، أترك الحكْم للقارئ على مثل هذا..! (أشير إلى تكرار كلمة النجوم أكثر من مرة في القصيدة)

أحبـــك..!

أحبكِ..لا أدري حدودَ محبتي
طباعي أعاصيرٌ..وعاطفتي سيْلُ
وأعرفُ أني متْعبٌ يا صديقتي
وأعرفُ أني أهوجٌ..أنني طفلُ
أحبٌ بأعصابي، أحبٌ بريشتي
أحبٌ بكلّي..لااعتدالٌ، ولا عقلُ
أنا الحبٌ عندي جدّةٌ وتطرّفٌ
وتكسير أبعادٍ..ونارٌ لها أكْلُ
وتحطيمُ أسوارِ الثواني بلمحةٍ
وفتحُ سماءٍ كلّها أعينٌ نُجْلُ
وتخطيطُ أكوانٍ، وتعميرُ أنجمٍ
ورسمُ زمانٍ..مالهُ.. مالهُ شكلُ
أنا ما أنا..فلتقبليني مغامراً
تجارتهُ الأشباحُ، والوهمُ، والليلُ
أحبكِ تعتزّين في خمسَ عشرةٍ
ونهدكِ في خيرٍ.. وخصرُكِ معتلُّ
وصدرُكِ مملوءٌ بألفِ هديّةٍ
وثغرُكِ دفّاقُ الينابيعِ مبتلُّ

تعيشين بي كالعطر يحيا بوردةٍ
وكالخمر في جوف الخوابي لها فعلُ..
وقبلكِ لم أوجد فلمّا مررتِ بي
تساءلتُ في نفسي: تُرى كنتُ من قبلُ
بعينيكِ..قد خبّأتُ أحلى قصائدي
إذا كان فضلُ الغنا..فلكِ الفضلُ.

في قصيدة " أحبكِ " لا يعرف الشاعر حدود محبته، طباعه أعاصير، عاطفته سيل، يعترف لصديقه أنه مُتْعب، وأهوج، وطفل، لكنه يحب بأعصابه، يحب بريشته، يحب بكلّه.. لا اعتدال، ولا عقل، الحب عنده جِدّة وتطرّف، وتكسير أبعاد، ونار تأكل الأخضر واليابس، وتحطيم أسوار الثواني بلمحة، وفتح سماء كلّها أعين شُهلْ، وتخطيط أكوان، وتعمير أنجم، ورسم زمان ماله شكل، إلى أن يخاطب من يحب بقوله: أنا ما أنا.. فلتقبليني مغامراً، تجارته الأشباح، والوهم، والليل.. إنه يحبّها أن تعتزّ في فعمرها الخمس عشرة سنه، ونهدها في خيرٍ، وخصرها معتلّ، وثغرها دفّاق الينابيع، مبتلّ.. ويعود من جديد ليعترف لها أنها تعيش فيه كالعطر الذي يحيا في وردة،لها فعْل الخمر في جوف الخوابي،

(أي المعتّق)، قبلُها لم يوجد، لكنها لمّا مرّت به تساءل في نفسه: ترى كنتُ من قبل..؟! وينهي القصيدة ببيت القصيد حيث يقول:

بعينيكِ.. قد خبّأتُ أحلى قصائدي

إذا كان لي فضلٌ الغنا.. فلكِ الفضلُ

(أُشير إلى استخدام كلمة أنجم، ونهدك، وثغرك، و بوردة في القصيدة)..

نهــدَاكِ..!

سمراءُ..صنبّي نهدكِ الأسمرِ في دنيا فمي

نهداك نبْعالذّةٍ حمراءَ تُشعل لي دمي

متمرّدان على السماء..على القميص المُنعمِ

صنمان عا جيّان..قد ماجا ببحرٍ مُضرمِ

صنمانِ..إني أعبدُ الأصنام رغم تأثّمي

فكّي الغلالةَ..واحسري عن نهدك المتضرّمِ

لا تكبتي النار الحبيسة وارتعاش الأعظمِ

نار الهوى في حلمتيك أكولةٌ كجهنّمِ

خمريّتان..احمرّتابلظى الدم المتجهّمِ..

محروقتان بشهوةٍ تبكي وصبرٍ ملْجَمِ

نهداك وحشيّان..والمصباح مشدوهُ الفمِ

والضوء منعكسٌ على مجرى الحليب المُعتمِ

وأنا أمدّ يدي وأسرق من حقول الأنجمِ

والحلمةُ الحمقاءُ ترصدني بظفرٍ مجرمِ

وتغطّ إصبعها وتغمسها بحبرٍ من دمي

ياصلبةَ النهدين..يأبى الوهم أن تتوهّمي

نهداك..أجملُ لوحتينِ على جدار المرسمِ

كرتان من ثلجِ الشمال..من الصباح الأكرمِ

فتقدّمي. يا قطتي الصغرى، إليّ تقدّمي..
وتحرّري مما عليك وحطمي..وتحطمي..
مغرورةَ النهدين..خلّي كبرياءك وانعمي
بأصابعي..بزوابعي..برعونتي..بتهجّمي
فغداً شبابك ينطفي مثل الشعاع المضرمِ
وغداً سيذوي النهد والشفتان منكِ..فأقدمي
وتفكّري بمصير نهدك بعد موت الموسمِ
لا تفزعي.. فاللثم للشعراء غيرُ محرّمِ
فكّي أسيريّ صدرك الطفلين..لا.لا تظلمي
نهداك ما خُلِقا للثم الثوب..لكنْ..للفمِ
مجنونةٌ مَن تحجب النهدين أو هيَ تحتمي
مجنونةٌ مَن مرّ عهدِ شبابها لم تُلثمِ..
..وجذبتُ منها الجسمَ لن تنفرْ..ولم تتكلّمِ
مخمورةً مالتْ عليّ بقدّها المتهدّمِ
ومضتْ تعلّلني بهذا الطافر المتكوّمِ
وتقولُ في سكرٍ، معربدةً، بأرشق مبسمِ
" يا شاعري..لم ألق في العشرين مَن لم يُفطمِ."

نرى الشاعر في القصيدة يخاطب السمراء: صبّي نهـدك الأسمر في دنيا فمي (يطرق الباب بشكل مباشر في أكثـر قصائده، دون مقدّمات)، ويتابع وصف نهديها بأنهما نبعا لذّة

حمراء، متمرّدان على السماء، وعلى القميص المنعم، همـا صنمان عاجيّان، وهو يعبد الأصنام رغم تأثّمه..

في لمقطع الثاني يسألها أن تفك الغلالة، وأن تكشف عن نهدها المشتعل، وأن لا تكبت النــار الحبيســة، وارتعــاش الأعظم، فنار الهوى في حلمتيها أكولــة كجهــنّم، ويصــف حلمتيها بأنها خمريّتان.. احمرّتــا بلظــى الــدم المــتهجّم، محروقتان بشهوةٍ تبكي، وصبرٍ ملّجم، ويتابع وصف نهديها، وحلمتيها، ويخاطبها بصلبة النهدين، وبمغــرورة النهــدين، ويتابع مغامراته الشعرية معها إلى أن ينهي القصيدة ببيــت يضمّنه القصيدة:

" يا شاعري.. لم ألقَ في العشرين مَن لم يُفطمِ "

نجد المبالغة في الوصف إلى درجة كبيرة، ومع ذلك من حق الشاعر أن يختار أسلوبه في مثل ذلك.. طالما هو يكتب بلغة الجنس بشكل مباشر، وسافر تماماً.. (أشير إلى استخدام كلمة النهدين/٩/مرات في القصيدة، بالإضافة لكلمة الأنجم)..

بعد هذه الرحلة السريعة مع " قالت لي السمراء " يمكــن القول: على الرغم من أنها المجموعة الأولى للشــاعر، وأنّ إصدارها جاء مبكّراً، بالنسبة لسنّه (٢١) سنه، وقد عزلها

قبل ذلك بالتأكيد، لكنها كما رأينا، جاءت تتناسب مـع سـن المراهقة، وهو يعيش صراعات الجسد والشهوة، ومـع ذلك فقد وُفّق إلى درجـة كبيرة في فنّيتها (مـن حيـث اللغـة الشعرية، والصور الجميلة، والخيال الخصب)، وإن كان هو الذي قال عن السمراء، ولم تقل هي شيئاً عنه إلا ما نـدر.. كما وُفّق في اختيار البحور المناسبة، والقوافي التـي قلّمـا جاءت مقحمة، جاءت موسيقى قصائده راقصـة، وصـوره لوحات مرسومة، وملوّنة بريشة فنّان مبدع، وكيف لا، وهو الذي أحب الرسم والموسيقى قبل أن يكون شاعراً، فلا عجب أن يمزج بين هذا وذاك في لوحاتـه الشـعرية، بالإضـافة للتنويع والتجديد والتنامي في بدء تجربته الشعرية، وخاصـة وقد اختار مسرح عمليّاته الشعرية الجسد والشهوة معاً..

*

وقبل أن أختتم دراسة " قالت لي السمراء " لا بـدّ مـن الإشارة أنّ الكلمات التي تردّدت على لسان الشاعر، وسالت من قلمه، لم تقتصر على القصائد التي مرّ ذكرهـا، وإنمـا تكررت في أكثر قصائده، كما أشرت من قبل: ففي قصيدة " مكابرة " (ص٢٣) تتكـرر كلمـة الأنجم، وفـي قصـيدة " اندفاع " (ص٣٢) تتكرر كلمة النجوم أكثر من مـرة، وفـي

قصيدة " في المقهى " تتكرر كلمة الـورد، والأنجم، وفي قصيدة " اسمها " تتكرر كلمة النهد، وفي قصيدة " غرفتها " تتكرر كلمة ثغرك أكثر من مرة، وفي قصيدة " حبيبة وشتاء " تتكرر كلمة عصفور، والنجمات، وفي قصيدة " مساء " تتكرر كلمة الأنجم، وعصافيرها، والنهد، وفي قصيدة "خاتم الخطبة " تتكرر كلمة النجم، وفي قصيدة " سمفونية على الرقص " تتكرر كلمة صفصافة، وانهد، وفي قصيدة " إلى صفصافة " تتكرر كلمة عصفورة، وصفصافة، والعصافير، وهكذا إلى آخر المجموعة (وستستمرّ الإشارة إلى تكرار مثل هذه الكلمات، للتعليق عليها فيما بعد..).

وبعد هذه الرحلة الممتعة مع "قالت لي السمراء " لا بدّ من رحلة قصيرة أخرى مع بعض ما قيل في كتاب " رحلة شوق مع نزار قباني " للناقد علي المصري، ويعتبر هذا الكتاب من أجمل ما كتب عن الشاعر نزار قباني، وفي حياته، حيث نجد على الصفحة الخلفية للغلاف رأي الشاعر نفسه في ما كتبه الناقد علي المصري، حيث يقول:

" يحاصرني علي المصري بحبه العظيم حصاراً لا يترك لي مجالاً للتعليق أو الاعتراض.. أو للتنفّس..

وعلي المصري يفهم الحب على طريقته، أي يفهمه اجتياحاً.. واحتلالاً.. وحكماً غير قابل للاعتراض.وربما كانت نظرة علي المصري إلى الحب النظرة الأصدق.. والأجمل لي وعندما طلبت من علي أن يعصمني من مطر حبه.. قال لي: لا عاصم لك من الماء..

وعندما سألته أن ينقذني قليلاً.. أو يجرحني قليلاً.. أو يذبحني قليلاً.. قال لي: وكيف تريدني أن أذبحك وفي دمك تجري كل أنهار دمشق.. وتصدح كلّ حماماتها؟

وبعد.. فهذا كتاب يسجل فيه علي المصري حبه لي بكل التفاصيل، ويضيء فيه زوايا من حياتي ومن شعري لا يعرفها الكثيرون.

ولسوف يكتشف القارئ، بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب، أن علي المصري سكن تحت جلدي خمساً وعشرين سنة.. وسجّل ضربات قلبي، وإيقاع دورتي الدموية.. وكان خلال رحلته الطويلة معي عدسةً تلتقط كل الأصوات والألوان والروائح.

ربما لا يتقيّد الكتاب بنظريات النقد وأصوله، فهو كتاب حب حقيقي.. والحب الحقيقي هو فوق الأصول والنظريات.

وعليه نجد أن الكتاب لا يتضمّن نقداً موضوعياً بمعنى النقد، لكنه مجرّد إضاءة على دروب رحلة الشاعر لا أكثر، وهناك أكثر من دليل على ذلك.. ومع ذلك فقد جاء الكتاب بمثابة قصيدة شعرية جميلة، من خلال اللغة الشعرية التي صبّها الناقد في الكتاب صباً بديعاً، وقد أفقدتها المبالغة الكثير من الموضوعية، لذلك نجد الشاعر راضٍ كل الرضا عمّا جاء فيها، وهو ما يلمسه القارئ مما كتبه على الغلاف كشهادة منه للناقد علي المصري.. وللأمانة لا بدّ من الاعتراف بأن في طيّات الكتاب الفائدة كل الفائدة للقارئ في إضاءة رحلة الشاعر، وسأعرض بعض ما قاله الناقد في مقدمة الكتاب:

" تحية شكر للذين سيتسلّقون معي عرائش هذه الرحلة على مدارج الشوق والحنين عبْر حقول الشذى والضوع، مع شعر نزار قباني، في واحاته المضيئة المزروعة على أجفان السحاب، المنسكبة من حناجر الوهج والعطاء ندىً على ظمأ التلقي والسماع، في هنيهة نحطم بها الساعات، لنعانق الفكر

المتوهج والروح المتألقة الدافقة على برزخ الخلــود، حيــث يتوقف الزمن وتفنى المسافات.

وأعتذر لأولئك الذين يدّعون فهم خفايا القصيدة كلّها مــن القراءة الأولى، فهؤلاء هم عباقرة نادرون، وعلى الرغم من هذا، فإني أستميحهم العذر أن يحتفظوا بنقدهم لتلك القصــيدة لأنفسهم. لأنّ القصيدة دنيا كاملةً بأبعادها وتضاريســها، ولا يعقل بالنظرة الشمولية فكّ رموزها وفهم أسرارها. لذا يبقــى نقدُهم سطحياً مهما حشوه بألفاظ المنهجيــة والموضــوعية. وذلك بدليل قصة الشيخ وأبي نواس مع بيته:

" ألا فاسقـــني خمراً وقل لي هي الخمر

ولا تسقــــني سراً إذا أمكن الجهر "

كما وأعتذر للقصيدة نفسها، هذه القصيدة المصنوعة مــن وهج لدم الأحمر، والمرصوفة من حجارة الأعين، وانبثــاق النور من غدد الجمال في وجدان الشاعرة فالقصيدة يا قارئي العزيز ليست " إناءً رومانياً أو فينيقياً من الفخّــار، تنتهــي مهمتنا بقراءة الكتابة المحفورة عليه.

القصيدة ليست مادةً منتهية، ليست زمناً ميتاً. إنّها جســرٌ ممدودٌ على كل الأزمنة. إنّ "هاملت " لا ينتهي إلى العصــر

الإليزابيتي فقط، ولكن ظلّه ينسحب على كل العصور. وحرّية " بول إيلوار " هي ليست حرّية فرنسا وحدها، وإنما هي حرية الزنوج والفيتناميين والفلسطينيين، وكلّ من يزرعون الرماح في لحم جلاّديهم. ودمُ " لوركا " المسفوح في بساتين غرناطة، ليس دماً أندلسياً فقط، وإنما هو دم البشرية كلّها ... والمتنبي هذا الذي يقفُ وحده في كفّة الميزان، ويقف الزمان كلُّهُ في الكفة الأخرى، يبدو لي رجلاً لا جنسية له، ولا جواز سفر، رجلاً يقفز على جبهة العصور كلّها".

وأعتذر للفهم أيضاً، لأن فهمَ القصيدة تاريخياً هو فهمٌ خاطئ " لأنّ التاريخ هو علم الحوادث الميّتة، علم الحوادث التي توقفت عن الفعل والانفعال. أمّا القصيدة فليست مادة منتهية وليست زمناً ميّتاً.. إنّ سيف الدولة **(حادثٌ تاريخي)** ولهذا فهو قابل للموت. أمّا المتنبي فهو **(حادثٌ شعري)** خارج سلطة الموت. وإذا كان سيفُ الدولة الحمداني لا يزالُ يتنفسُ في ذاكرتنا حتى اليوم، فلأنّ قصائد المتنبي فيه، هي التي جعلت تنفسه ممكناً " .

وأعتذر للذين اعتادوا الرحلة والسفر على ناقة النابغة بصحبة وحش وجَرة. لأنه لن يروق لهم السفرُ مع شعر نزار على (جندول) عبْرَ دروب فينيسيا والوادي الكبير، بصحبة زوبعة من العطور ترشُّها جدائلُ دليلةٍ شقراء على أبواب قصر الحمراء. أو أعطاف ماردةٍ سُويديّة من ماردات الشمال تضعُ القمر على ذوائبها وتتعلق نجوم المجرّة بأذيالها.

أعتذر لهم ولكل الذين ما زالوا يعيشون بمنطق الطبل، ويحركون أقدامهم لنغمة الوتر الواحد، منطق الربابة والدّف، لأنه لن يعجبهم شعر نزار. فالبناء الهرموني لشعر نزار بناء (سمفوني) تختلط فيه الألوان بالضوء، وتمتزج فيه الأنغام مع الظلال، والصور مع قهقهات الفكر الوضيئ، في سيل هادر يقيمُ الدنيا ويقعدها على إفراز جمالي يسربل الكون بألف غيمة بنفسجية تمطرُ زمرداً وحباً وياقوتاً .

كما أعتذر للمتأدبين المحدثين، دعاة التقدمية في اللغة، والغموض في الأدب، وأصحاب الألفاظ المتدحرجة والأفكار السديمية الغائمة، أعتذر منهم جميعاً لأن الرحلة من شعر نزار ولغة نزار وتألّق نزار، ستتعبهم بوضوحها وصفائها

وزينتها، ولأنها تحتاج إلى تألق هادئ وسماع ركين بعيداً عن طقطقة أحجار النرد وقرقعة الأناشيد المدرسية.

وأخيراً أعتذر لأبجدية نزار التي تتسلّق أصابعي وتتعربش في حنجرتي، وتشرنق على قمصاني ومناديلي وشراشفي، وتترّش في قلبي وفكري وقلمي.. فلا انعتاق لي من دواليها وعطورها التي دفعتني بنشوة غامرة عبر مساربها الندّية وظلالها السرمدية طيلة ربع قرن ونيف، أعتذر لبنات فكره وهدايا روحه، التي أفتتح بها دروس الأدب في الصفوف الثانوية العليا.. وقصائده العذبة الطريّة التي يحفظها أصغر أطفالي، وأغلى حبيباتي، وأصدقاء جلساتي، وأوشّي بها سطور رسالاتي.

دمشق ١/٤/١٩٧٧

علي المصري

وفي الكتاب تعرّض الناقد علي المصري إلى العوامل الفاعلة التي أذكت وفتّقت شاعرية نزار، كما يراها وهي:

- الجنّة التي قدّر لها أن تكون مسقطاً لرأس الشاعر.
- ثقافته المبكرة ومطالعاته الأدبية باللّغات الأجنبية.
- العوامل الوراثية التي فجّرت مخزون الشاعر الفنّي.
- السفر والتجوال في مشارق الأرض ومغاربها:

١- التجربة المصرية.
٢- التجربة الإنكليزية.
٣- التجربة الإسبانية.
٤- التجربة الصينية.
٥- التجربة اللبنانية.
٦- تجربة القراءات الشعرية.

وهذه التقسيمات اعتمدها الناقد في دراسة "رحلة شوق نزار قباني" كما سمّاها الناقد.. هذا بالإضافة إلى المراحل الفنية التي مرّت بها لغة نزار الشعرية:

- تمهيد.. اللغة القبانية المتميّزة.

٧- مرحلة التطريز أو السيراميك والنغم (دمشق – القاهرة)

٨- ١٩٤٤-١٩٥٢

٩- المرحلة الرمادية أو مرحلة الاختزال.. لنــدن ١٩٥٢-١٩٥٥

١٠-المرحلة الصينية الصفراء، أو مرحلة الحزن.. الصين ١٩٥٨-١٩٦٠

١١-المرحلة الحارّة أو مرحلة عدم الحياد.. إسبانيا ١٩٦٢-١٩٦٦

١٢-المرحلة القرميدية أو مرحلة الاستقرار.. لبنان ١٩٦٦-..

١٣-المرحلة الحزيرانية أو مرحلة الانقلاب والثورة السياسية.. أرض العروبة ١٩٦٧

ثم أضاف الصراع بين جديد نزار والقديم المتوارث:

١٤-الصراع بين القديم والحديث.

١٥-الأشواك التي علقت بأثواب الشعر خلال ثــورة التجديد.

١٦-شعرنا متخلف لأننا متخلّفون وليس العكس.

١٧-دراسة مقارنة بين القصيدة الكلاسيكية والقصيدة القبّانية.

بعد ذلك تعرّض للمرأة في شعر نزار قباني:

١٨-الوطن وراء الحب والمرأة في شعر نزار.

١٩-تبنّي شعر نزار الدفاع عن قضيّة المرأة.

٢٠-من هي المرأة التي أحبّها نزار؟

٢١-لماذا اختار الشاعر المرأة هدفاً نضالياً.

وأخيراً، تعرّض لنثر نزار.

هذا كل ما تضمّنه الكتاب، وقد أوضحت فهرس الكتاب لأبيّن المناحي التي درسها الناقد، واعتمدها منهجاً لدراسته، وسأوضّح التباين بيني وبينه فيما بعد لأبيّن أن المبالغة نتيجة المحبة قد تضر بالنقد كثيراً إلى درجة أنها قد تفقده المصداقية في بعض الأوقات.

أما كتاب " رحلة الشعر والحياة " للشاعر نزار قباني، للناقد ديب علي حسن، حيث يقدّم لكتابه " نزار قباني الربيع الدائم " حيث يقول:

" نزار قباني أشهر شاعر عربي، جمهوريته امتدت من مغرب الوطن إلى مشارقه، جمهورها نساء وشباب، عوالمها ثرية غنية، إنه صاحب مشروع المدينة الشاعرة مقابل

المدينة الفاضلة، وبين الجمهوريتين علاقة خفيّة مغزولة من شغاف القلب، فالشعر فضيلة، والفضيلة شعور وموقف.

لقد ملأ نزار قباني دنيانا فرحاً وسروراً، وألقاً وعطـــاء، كان المجدّد الأول في الموضوع، وأعلن ثورة المرأة العربية، حرر النهود والشفاه وجعل من العشق كتاباً تتلى فصوله ليل نهار.

مسيرة نزار قباني الإبداعية تاريخ حافل بالعطاء، بـــدأت منذ عام ١٩٤٤م وما تزال مستمرة وخلال مسيرته الطويلــة أثار حوله العديد من الزوابع والمعارك.. هاجمه الكثيــرون، وأيّده آخرون.. باعت أمه أساورها حتى يطبع ديوانه الأول، وثار أهل دمشق عليه كما ثاروا على جد من جدود العائلــة من قبل (أبو خليل القباني).

وفي أسرة نزار حادثة عشق واستشهاد كما يقول " ويــوم مشى في جنازة أخته كان الحب يمشــي إلــى جــانبي فــي الجنازة، ويشد على ذراعي ويبكي.. وحين زرعوا أختي في التراب.. وعدنا في اليوم التالي لنزورها، لم نجــد القبــر.. وإنما وجدنا في مكانه وردة.. هل كان موت أختي في سبيل الحب أحد العوامل النفسية التي جعلتني أتوفر لشعر الحــب

بكل طاقاتي وأهبه أجمل كلماتي؟! هل كانت كتاباتي عن الحب تعويضاً لما حُرِمت منه أختي،وانتقاماً لها من مجتمع يرفض الحب ويطارده بالفؤوس والبنادق؟!

إنني لا أؤكد هذا العامل النفسي ولا أنفيه، ولكنني متأكد من أن مصرع أختي العاشقة كسر شيئاً في داخلي.. وترك على سطح بحيرة طفولتي أكثر من دائرة.. وأكثر من إشارة استفهام.."

نزار قباني شاعر الحب تارة، وشاعر المرأة تارة أخرى، كما يقول البعض، وهو الشاعر العصي على التصنيف كما يقول، ودون شك ما من شاعر عربي معاصر شغل النقاد كما شغلهم نزار، حللوه نفسياً وجسدياً، تابعوا تاريخ حياته يوماً بيوم، مئات الأبحاث والدراسات، وعشرات الكتب والأطروحات الأكاديمية تناولت شعر نزار وموضوعاته، والكل ركّز على المرأة في شعر نزار وحياة نزار، واتجه آخرون إلى التحليل النفسي فكانت دراسة د خرسيتو نجم (النرجسية في أدب نزار).

ونزار لم يترك النقاد يشرّحونه ويكتبون سيرته فكتب سيرته هو، فكان كتابه " قصتي مع الشعر " وله مساهمات

أخرى كثيرة في مجال إضاءة شعره، فهناك كتابان هامان له هما:

عن الشعر والجنس والثورة، والمرأة في شـــعري وفـــي حياتي *.

وباختصار ليس هناك من مزيد، ما لم يقله النقاد قاله نزار قباني، ومع ذلك فهو كالبحر من أي الجهـــات جئتـــه، فهـــو الموج الهادر المتلاطم، فشعره يحتاج إلى آلاف القـــراءات، وهو كالنور الساطع كلما ازدادت طاقته ازداد إبهاراً..

ومن هنا يبرز السؤال التالي: ما الذي سيقدمه هذا الكتاب؟ هل يحمل جديداً؟!

الإجابة أتركها للقارئ، ولكن أقول إنّ هذا الكتـــاب جـــاء لضرورات كثيرة من أهمها أن شعر نزار الذي استغرق أكثر من/٥٠/ مجموعة، صار رغيف خبز لشبابنا وشاباتنا، ولغته الثرّة، وأسلوبه الرائع خير زاد لشبابنا، ولكـــن المجموعـــات متناثرة، والثمن غالٍ، فمن يشتري مجموعة لا يســـتطيع أن يكمل شراء المجموعات الأخرى، فكان الهدف الأول من هذا الكتاب جمع ما يمكن جمعه من شعر نزار، واختيار ما يمكن أن نقول عنه من عيون شعره أو شعره كله عيون وأزاهير،

وهناك سبب آخر هو تسجيل شهادات عن نزار في مناسبات متعددة، بعضها معه وبعضها الآخر عليـــه، وتركناهـــا دون تعليق ليكون للقارئ حرية إبداء الرأي.

والسبب الثاني أن يأتي هذا الكتاب تحية لنزار قباني في عيد ميلاده الرابع والسبعين.

الكتاب لا يحمل وجهة نظر خاصة، يكاد أن يكون نزارياً، فهو مختارات من شعره ونثره، جاء ليكون بمثابــة كتــاب يحمل في طيّاته سيرة حياة الشاعر وملامح عريضـــة مـــن تجربته الشعرية ومختارات شعرية، وبـــذلك يكـــون أشـــبه بمرجع يمكن أن يسد نقصاً في هذا المجال.

في شعر نزار الكثير من الحزن والألم والقسوة، الشـــاعر رفيق الحزن، رفيق الألم، لكنه رفيق الفرح والأمل، توحّـــد الشاعر بماء العشق وأمطر السماء شعراً طاهراً نقياً، لكنـــه في النهاية ملوّث بمجراه.

في شعره السياسي هناك غضب وثورة تكاد تتحوّل إلـــى لعنة على العرب والعروبة، يبرّرها البعض،وينكرها آخرون.

بحق إن نزار أول شاعر عربي طـــرح قضـــية المـــرأة والجنس بمثل هذه الصراحة، وهو الشـــاعر الأول الـــذي لا

نستطيع أن تأخذ رأياً صريحاً له، فهو كتلة من المتناقضات التي لها ما يبرّرها، فهو تارة عاشق متيّم، وتارة سادي، إنه يبحث عن الخلود في الشعر والحياة، إن نزار الدبلوماسي جعل من شهرة نزار الشاعر شيئاً كبيراً، لقد استطاع أن يعيد للشاعر مكانته، ولكنها مكانة شخصية، فهو يتعامل في تصريحاته وأحاديثه بإثارة كبيرة، إنه شاعر إعلاني عن نفسه وذاته وشعره وأكاد أجزم أن نزاراً قد خلق لنفسه فضاءات من العداوات الوهمية التي لا وجود لها على أرض الواقع، يتحدث عن اضطهاده ومهاجمته، وعن مصادرة شعره، لكن اذهب إلى المكاتب والأرصفة ستجد كتبه تملأ الشوارع والمكتبات، إنه شاعر صدامي إن لم يجد من يناوشه ويصادمه صادم نفسه وافتعل معركته الوهمية.

فإلى نزار الشاعر الكبير أبداً والنهر الثالث في سورية، إلى من جعل لغة الشعب لغة شعرية تزهو بثوبها الربيعي الدائم، إلى نزار قباني الإنسان والشاعر، هذا العمل في عيد ميلاده الرابع والسبعين، إنه باقة ورد آمل أن تكون عطرة.

ديب علي حسن

ومن هذه المقدمة الربيعية نكتشف بسهولة الجوانب التي أراد الناقد أو الدارس إبرازها أو إضاءتها في الكتاب، وهي مما لا شك فيه فيها الفائدة كل الفائدة للدارس والقارئ معاً..

في صفحة/٢٨/ يتحدث الكاتب عن البدايات والديوان الأول، على أنها ولادة بحرية، تفجّرت كما يقول نزار وهو في طريقه، كتب يقول: " وحين كانت طيور النورس تلمس الزبد الأبيض عن أقدام السفينة المبحرة من بيروت إلى إيطاليا في صيف ١٩٣٩م، وفيما كان رفاق الرحلة من الطلاب والطالبات يتضاحكون ويمشون ويأخذون الصور التذكارية على ظهر السفينة، كنت أقف وحدي في مقدمتها أدمدم الكلمة الأولى من أول بيت شعر نظمته في حياتي، أذهلتني المفاجأة، قفز البيت الأول من فمي كأنه سمكة حمراء تنط من أعماق الماء، بعد دقيقتين قفزت السمكة الثانية.. وبعد عشر دقائق قفزت الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة، ثم العاشرة، طرت فرحاً باختلاج السمك الأحمر والأزرق والذهبي في فمي، فما عدت أعرف ما أفعل، كيف ألتقط السمك، أين أضعه، ماذا أطعمه ليبقى حياً..؟! "

بعدها مباشرة تناول الكاتب " قالت لي السمراء، ديوان الفاسق والبغي " كما سمّاه .. حيث يقول: " إذا كانت أسماك نزار الأولى قد قفزت من فمه مباشرة إلى ماء البحر على ظهر السفينة المبحرة إلى إيطاليا، وذهبت إلى عالمها المائي، فإنها في دمشق المحاطة بالياسمين وبالحور وبالغوطة لم تستطع أن تقفز إلى نهر بردى، بل قفزت حجارة دمشق وبيضها الفاسد لتصل إلى رأس نزار قباني إن استطاعت، هذا ما فعله ديوانه الأول " قالت لي السمراء "..

لقد أقام الدنيا وأقعدها، حرّك الماء الآسن، وكسر حاجز الحياء وأعلن أن ماء دمشق وياسمينها لن يبقى أسير البيوت المغلقة، ولن يبقى صحراء الزمن القاحل تفرض شروطها على روعة دمشق ودهشتها، نشر نزار ديوانه الأول " قالت لي السمراء " في أيلول سنة ١٩٤٤ وموّلها من مصروفه الشخصي، وكان عدد نسخها/٣٠٠/ نسخة..

الجريمة: وعن ردّات الفعل على عمله هذا يقول نزار قباني: " وتحرّك التاريخيون ضدي، رفضوا العنوان والمضمون، هاجموني بشراسة وحش مطعون " ففي شهر آذار سنة ١٩٤٦ من مجلة الرسالة المصرية، كتب الشيخ

علي الطنطاوي: طبع في دمشق كتاب صغير زاهي الغلاف ناعم ملفوف بورق الشفاف الذي تُلفّ به علب /الشكولاته/ في الأعراس معقود عليه شريط أحمر كالذي أوجب الفرنسيون أول العهد باحتلالهم الشام وضعه في خصور (بعضهن)، (ليعرفن) به، – أي الديوان – كلام مطبوع على صفة الشعر، فيه أشعار طولها واحد إذا قستها بالسنتمترات، يشتمل على وصف ما يكون بين الفاسق، والفارح، والغي، المتمرّسة الوقحة، وصفاً واقعياً، لا خيال فيه، لأن صاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال، بل هو مدلل عزيز على أبويه، وهو طالب مدرسة، وقد قرأ كتابه الطلاب في مدارسهم والطالبات وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض يختلط فيه البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو لأن الناس قد ملّوا رفع الفاعل، ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه فلم يكن بدّ عن هذا التجديد..".

ويقول نزار إن هذا الديوان كان أزهار الشر بالنسبة لدمشق مثل بودلير، وقصيدة " نهداك " في هذه المجموعة كانت الشرارة الأولى التي أطلقتني والمفتاح إلى شهرتي.

والطلبة العراقيون كانوا يسكرون عليهـا علـى ضفاف دجلة، واللبنانيون كانوا يمزمزونها على موائد العـرق فـي زحلة، وفي المدارس كان الطلاب يضعونها داخـل كتـب الحساب والجغرافيا، ويكتبون بعض أبياتها علـى الألـواح السوداء، والطلاب هم الذين نثروني على كل الآفاق، وهـم الذين طوبوني وعمّدوني.

وكما يقول فخلال شهر طارت الثلاث مئة نسخة..".

ومن المعروف (والقول للكاتب ديب) أن الكثيرين مـن رجالات دمشق وشيوخها وقفوا ضد الشاعر ومجموعته، لكنّ والد الشاعر كان متفهّماً لشاعرية ابنه ولـم يقـف موقـف المعارض، كما يقول الشاعر نزار قباني.

كتب مقدّمة الطبعة الأولى الدكتور منير العجلاني، وممـا كتبه في هذه المقدمة " لا تقرأ هذا الديوان، فما كُتب ليُقـرأ.. لكنه كُتِب ليُغنّى.. ويُشم.. ويُضم.. وتجد فيـه الـنفس دنيـا ملهمة.

ديوان صغير، صغير.. مثل حبيبنا (حسن) الذي لخّص ده موسه فتونه بهذه الكلمات: " خلقه الله صغيراً ليـأتي أملـح وأجمل وأنفذ سحراً ".

يا نزار..!

لم تولد في مدرسة المتنبي، فما أجدك تعنى بشيء من الرثاء والمديح والحكمة، وما أجدك تعنى بالبيت الواحد من القصيدة يُضرب مثلاً، وما أجدك بعد هذا تعنى بالأساليب التي ألفها شعراؤنا وأدباؤنا، وإنما أنت (شيء جديد) في عالمنا و (مخلوق غريب).

وكأني أجد في طبيعتك الشاعرة روائع بودلير وفيرلين وألبير سامان، وغيرهم من أصحاب الشعر المزي والشعر النقي.

نزار..! لا أسألك.. إنما أسأل الله شيئاً واحداً.. أن تبقى كما أنت، طفلاً، يصورّ.. يغنّي.. ويعشق..

كأنه ملاك يمشي على الأرض ويعيش في السماء.. لا تطلب " الشاعر الخالد " فإن الشاعر الخالد الذي يعيش في المجامع العلمية والمكتبات الأثرية، يجرّ وراءه في الطريق، الصحراء القاحلة، وعفونة جماعة من أغبياء المعلمين، أما أنت.. فإنك تمر مرور الموكب الملكي أو الملائكي:

مررتِ أم نوّارُ مرّ هنا
لولاك وجه الأرض لم يُعشبِ

تمهّلي في السير.. هل رغبة
ظلّت بصدر الدرب لم ترغبِ
شارعنا.. أنكر تاريخه
والتفّ بالعقد وبالجوربِ
أذرعنا.. أذرع أشواقنا
تهتف بالذهاب.. لا تذهبِ
دوسي فمن خطوك قد زرّرَ
الرصيف.. يا للموسم الطيّبِ
يا للموسم الطيّبِ..!

ما أجد أحلى من هذه الكلمة في تحية ديوانك.

وعن بدايات الشاعر يقول الأستاذ عبد الغني العطري في كتابه " عبقريات من بلادي ": " زارني نزار سنة ١٩٤١ في مجلة الصباح، وكان يحمل مغلّفاً أزرق اللّون، وناولني قطعةَ ورق كانت في داخله، فإذا بي أجد قصــيدة شــعر تحمــل عنوان/ نهداكِ/ وقد كتبت بخط صغير، منمنم، وكلمات بعض حروفها مشكولة، قرأت القصيدة بإمعان وحين فرغت منهـــا رفعت رأسي لأقول: القصيدة جيدة ولا شك، ولكنها جريئــة أكثر من اللازم وقد يسبب لي نشرها متاعب مع المتــزمّتين من الناس.

ولكن نزار أخذ يلقي عليّ درساً بالشجاعة والجرأة وعدم الاستسلام أمام التيارات الرجعية، ثم ناولني (كليشيه) كان قد أعدّها سلفاً لعنوان القصيدة، وظهرت قصيدة/ نهداكِ/ في العدد التالي من (الصباح) بعض الأدباء أعجب بها كل الإعجاب، وبعضهم سجل بعض المآخذ عليها..

هذا ما قاله الكاتب ديب علي حسن على لسانه وعلى لسان الآخرين..

وقبل أن ننتهي من ديوان " قالت لي السمراء " أسأل: ألم يكتب الشاعر نزار قباني عن هذا الديوان في " قصتي مع الشعر "؟ الواقع لقد كتب..

يقول نزار قباني: " وفي جو هذه الإنكشارية الشعرية (حديث سابق يتعلّق بالرأسمالية الشعرية)، نشرت مجموعتي الأولى " قالت لي السمراء " في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٤. نشرتها من مصروف جيبي، وكانت الطبعة الأولى منه (٣٠٠) نسخة فقط.. لأن ميزانيتي كطالب لم تكن تسمح بأكثر..وبلحظة تحرّك التاريخ ضدّي.. وتحرّك التاريخيون، رفضوا الكتاب جملة وتفصيلاً، رفضوا عنوانه، ورفضوا حتى لون ورقه.. وصورة غلافه.. هاجموني بشراسة وحش

مطعون..كان لحمي يومئذ طرياً.. وسكاكينهم حادّة.. وابتدأت حفلة الرجم..

ففي عدد شهر مارس ١٩٤٦ من مجلة (الرسالة) المصرية، كتب الشيخ علي الطنطاوي عنّي وعن كتابي، الكلام الدمويّ التالي:

" طبع في دمشق كتاب صغير زاهي الغلاف ناعمه، ملفوف بالورق الشفاف الذي تلفُّ به علب " الشكولاته) في الأعراس، معقود عليه شريط أحمر كالذي أوجب الفرنسيون أول العهد باحتلالهم الشام وضعه في خصور (بعضهن) ليعرفن به. فيه كلام مطبوع على صفة الشعر، فيه أشطار طولها واحد إذا قستها بالسنتيمترات..

" يشتمل على وصف ما يكون بين الفاسق والقارح والبغي المتمرسة الوقحة وصفاً واقعياً، لا خيال فيه، لأن صاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال، بل هو مدلل غنيّ، عزيز على أبويه، وهو طالب في مدرسة. وقد قرأ كتابه الطلاب في مدارسهم والطالبات.

" وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض، يختلط فيه البحر البسيط المتوسط، وتجديد في قواعد النحو لأن

الناس قد ملّوا رفع الفاعل ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه، فلم يكن بدٌّ عن هذا التجديد.."

*

هذا نموذج مصغر لواحد من الخناجر التي استعملت لقتلي.. صوتٌ واحد من أصوات القبيلة التي تحلّقت حولي، ترقصُ رقصة الموت، وتقرع الطبول، وتتلذذ بأكل لحمي نيئاً.. وإذا كنت قد نجوت من هذا الاحتفال البربري بقدرة قادر، فإن الحروق، والرضوض، والكدمات، جعلتني أكثر تمسكاً بخشبة صليبي، وأكثر إدراكاً للعلاقة العضوية التي تربطُ الإبداع بالموت.. والكتابة بالاستشهاد.

نحن حين نكتب، نكسر شيئاً. ومن طبيعة الشيء المكسور أن يصرخ دفاعاً عن نفسه.

و " قالت لي السمراء " حين صدوره عام ١٩٤٤ أحدث وجعاً عميقاً في جسد المدينة التي ترفض أن تعترف بجسدها.. أو بأحلامها.. كان دبوساً في عصب المدينة الممدودة منذ خمسمئة عام، على طاولة التخدير.. تأكل في نومها، وتعشق في نومها، وتمارس الجنس في نومها..

(قالت لي السمراء) كان كتاباً ضد التاريخ وضد التاريخيين. ومن سوء حظه – أو ربما من حسن حظه – أنه ولد بين أضراس التنين..

إنني أحترم التاريخ حين يكون شرارة تضيء المستقبل، ولكنني أرفضه بعنف، حين يتحول إلى نصب تذكاري.. أو إلى برشامة كتب على غلافها الخارجي: " ليس في الإمكان أبدع مما كان..".

و (قالت لي السمراء) كان محاولةً طفولية صغيرة، لتجاوز (ما كان) إلى ما (يمكن أن يكون).. ولنقل الشعر من مرحلة السكون التاريخي، إلى مرحلة الحركة والتجاوز.

إذا كانت معلقة " عمرو بن كلثوم " محطّة من محطّات التاريخ، فلا يصح أن نبقى محبوسين فيها إلى ما شاء الله، وإذا كانت الربابة إرثاً تاريخياً جميلاً، فلا يجوز أن تبقى نهاية الطرب. إذا كانت (مقامات الحريري) إيقاعاً لغوياً على سطح من النحاس.. فإن مثل هذا الإيقاع أصبح صداعاً لا يحتمل بالنسبة للأذن العربية المعاصرة.

لقد كان "قالت لي السمراء " في الأربعينات زهرة من (أزهار الشر)، وإذا كانت باريس قد تسامحت مع بودلير

حين أهداها أزهاره السوداء، وسلّط الضوء علــى المغــاثر السفلية، والدهاليز الفرويدية في داخل الإنسان، فإن دمشــق الأربعينات لم تكن مستعدّة أن تتخلّى عن حبّة واحــدة مــن مسبحتها لأحد..

لذلك جاءت ردود الفعل جارحة.. وذابحة، وكلام الشــيخ الطنطاوي، عن شعري، لم يكن نقداً بالمعنى الحضاري للنقد، وإنما كان صراخ رجل اشتعلت في ثيابه النار..

إن تحرّك الدراويش، والطرابيش، والترابيش، ضدي كان تحركاً طبيعياً ومبرّراً.. فساكنو تكايا الشعر العربي يعرفون أن أي صوت شعري جديد، سوف يقطع رزقهم ويحيلهم إلى المعاش.. لذلك فهم يتحصّــنون وراء دروعهــم التقليديــة.. اللغة، والنحو، والصرف، والأمر بالمعروف، والنهــي عــن المنكر..

في الجانب الآخر من المسرح كان الجيل الدمشقي الجديد يبحث عن معنى لوجوده، وعن حلّ للتناقض الكبير القائم بين فكره وبين تفاصيل حياته اليومية.

كان يقرأ عن الحرية ولا يطبّقها، ويسمع عن الوجودية، والسريالية، والدادائية، والتكعيبية، فيذهل ذهول القرويّ الذي ينزل إلى المدينة للمرة الأولى.

كانت أفكار الحرب العالمية الثانية، وفلسفاتها، ومذاهبها، وأيديولوجيتها.. تصدم جهازه العصبي، فيشعر أنه أخف وزناً، وأكثر قدرة على الدخول في حوار حضاري مع الالم.

وهكذا فتح (قالت لي السمراء) الضوء الأخضر.. أمام ألوف من الشبّان والشابّات، ليعبروا إلى الرصيف الثاني.. حيث كانت الحريّة بانتظارهم.

كان في قصائد (قالت ليَ السمراء) لغةٌ تشبه لغتهم، وأشواق بحجم أشواقهم، وشعر بمساحة انفعالاتهم..

كان فيه حب، وشهوة، وعصيان، ووحشية، وجميع الأدوات التي يستعملها المساجين عادة لكسر أقفال زنزاناتهم..

إن تقييم (قالت لي السمراء) بعد ثلاثين عاماً من صدوره، قد يبدو لمن يجلسون الآن تحت شمس الحرية، تقييماً خرافياً ودراماتيكياً، ولكن الذين يردّون الفن إلى جذوره الاجتماعية ، يعرفون أن هذا الكتاب كسر لدى نشره

كل الاحتكارات اللغوية، والبلاغية، والخطابيـــة، والغنائيـــة، والأخلاقية، ومدّ لسانه كتلميذ شيطان لمجتمع الدراويش..

لعب (قالت لي السمراء) لعبة الحرية علـــى قـــدر مـــا يستطيع أن يلعبها تلميذ على مقعد الدراسة، قد اتّسم بـــالتوتّر والعصبية، فلأن الحب في تلك الأيام، كـــان حبـــاً مقهـــوراً، ومحظوراً، ومسروقاً من ثقوب الأبواب.

أمّا الجنس فكان مادة محرّمة، لا تبـــاع إلاّ فـــي الســـوق السوداء.. وفي بيوت ممتهنات الهوى..

هكذا كنّا نعشق في ظلال الرعب، ونسعى إلى مواعيـــدنا في ظلال الرعب، ونفعل الحب في ظلال الرعب.. ونكتـــب في ظلال الرعب..

وحين يختلس الإنسان الحب اختلاساً، وتتحول المرأة إلى شريحة لحم نتعاطاها بالأظافر.. ينتفي الوجـــه الحضـــاري للحب، وتنتفي أية صيغة إنسانية للحوار.. ويصـــبح الغـــزل رقصةً همجيةً حول ذبيحةٍ ميتّة.

إن المرأة في أكثر الشعر العربي مادة ميتة. وأعضـــاؤها الجميلة مصفوفة على موائد الشعراء كأطبـــاق المشـــهيات..

فهي طرفٌ كحيل، أو عجز ثقيل، أو خصر نحيل (يكاد من ثقل الأرداف ينبترُ).

وأود أن أعترف، أنني في أعمالي الأولى ورثت هذه النظرة التجزيئية إلى الجنس الثاني.

وهذه النظرة التجزيئية إلى المرأة، لها جذورها القبلية، والتاريخية، والاجتماعية، والدينية. فالعرب بحكم ارتحالهم وغزواتهم وفتوحاتهم لم يستطيعوا أن يسكنوا إلى المرأة سكوناً تاماً يسمح لهم باستيطانها واكتشافها روحياً.

إن العقل القبلي، وتقاليد البداوة ومؤسساتها لم تكن تسمح - خارج نطاق الزواج، أو الغزو، أو اقتناء الجواري - بإقامة علاقة حميمة بين الرجل والمرأة.. وحتى في الحالات التي ذكرت، يطغى عنصر الامتلاك الجسدي - كما في حالة الجواري مثلاً - على أي عنصر ذهني أو نفسي أو تجريدي.

إن التجريد الذهني محصول حضاري، لا يصل إليه الإنسان إلا في ظل العلاقات المطمئنّة. وعلاقات العربي بالجنس الثاني كانت علاقات عصبيّة لاهثة ومستعجلة.

هذا هو اجتهادي، وبه أفسّر نظرتي الجغرافية القاصرة إلى جسد المرأة في (قالت لي السمراء) و (طفولة نهد) و (أنت لي)، ودوراني المستمر حول حدودها الخارجية

إذن فقد كنتُ مخلصاً لميراث القبيلة، في أشعاري الأولى، ولم أتحرر من هذا الميراث إلا حين أتيح لي أن أجلس عام ١٩٥٢ على مقعد من مقاعد الهايدبارك في لندن، وأقيم حواراً مع الجنس الثاني.. بعيداً عن صداع الجنس، وانفعالات القبيلة..

الثلاثمائة نسخة التي طُبعت من (قالت لي السمراء) طارت في شهر، وانتقلت قصائده كالحرائق الصغيرة من يد.. إلى يد.. ومن حجرةٍ إلى حجرة.

قصيدة " نهداك " في هذه المجموعة، كانت الشرارة الأولى التي أطلقتني، والمفتاح إلى شهرتي.

إذن فالطنطاوي لم يقتلني.. لأن جيل الأربعينات من الشباب والشابات كان يرفض موتي المجاني، ويرفض أن أسقط تحت أقدام الإنكشاريين.. لأن سقوطي كان يعني سقوط أحلامهم.. واغتيال أول زهرة من زهرات الحرية تفتحت في مزهرياتهم..

وصمد (قالت لي السمراء) في وجه العاصفة، وتوالـــد.. وتناسل.. حتى صارت النسخ الثلاثمئة المطبوعة منه عـــام ١٩٤٤ غابةً لا نهائية الأوراق عام ١٩٧٢ .

إلى هنا أكون قد انتهيت من ديوان " قالت لي السمراء " مبدئياً، فإلى ديوانه الثاني " طفولـــة نهـــد.. " فـــي الجـــزء الثاني..!

انتهى الجزء الأول